صادر للكتب

IEEN
DAY'S OF SHAKLBAZ

شيرين هنائي

لاشين

الكتاب السادس عشر - أيام الشقلباظ

كتوبيا للنشر والتوزيع
KOTOPIA PUBLISHING HOUSE

رواية

لاشين

أيام الشَّقلباظ

الكتاب السادس عشر

شيرين هنائي

إلى الأعزاء:

م. أيمن حويرة ونهى عودة.. لكما الفضل الأكبر بعد الله سبحانه وتعالى. أشكركما.

ا. عمرو يسري.. البداية كانت من أوديوهات العزيزة.. شكرًا لك ولها.

الفنان الدكتور محمد خميس.. إيمانك بالشخصية، وأداؤك لها أضاف لها الكثير.

إلى زوجي.. صديقي..شريكي..

أحبك.

شكر خاص:

لجامعة برشلونة، ولمركز جوزيف بانكس راين، وللجمعية الروحانية البريطانية على جهودهم المستمرة في التعليم ونشر المعرفة.

السيد إد وارن وزوجته السيدة لورين وارن.

الدكتور محمد أحمد خالد توفيق.

مقدمة

أنا.. لاشين.

لا شك أنّها الحقيقة الأهم التي يجب عليك استيعابها، إلى جانب كوني الأول، والأخير. ولتحمد الله على هذا. فالعالم لن يتحمل معرفة حقيقة ما مررت أنا به، ولا ما تسببت فيه، ولا ما أصبحت عليه.

أي لاشين آخر لا يُعوّل عليه، سواء كان من عائلة الدجّال الأشهر في طنطا: الشيخ لاشين، أو كان من خارجها. أي لاشينٍ آخر عليه أن يتوارى حتى تنتهي الأزمة التي تسببتُ فيها عمدًا وبلا قصد.

هل يستأهل الأمر أن أحكي؟ لم أدرك ضرورة ذلك إلا مُتأخرًا، وكأنه لا زال بداخلي ما يشفق على البشر ومصيرهم لو ظلوا على جهلهم. وأحيانًا ما أرى أن الجهل نعمة، فلو أن رصاصة خرجت من مسدس لتصيبك بعد كسر من الثانية، فبماذا ستستفيد لو عرفت أنها انطلقت؟ لا وقت للفرار، ولا لصلاة أخيرة.

لكنني سأحكي.. كفعلِ بشريٍ أخير، ولأنني وعدت سهير زاهر، سأحكي.

شخصيات السلسلة:

لاشين: مهندس كهرباء ساحر يلتهم الشياطين ويكتسب قوتها.. وشرها.

سهير: مصورة فوتوغرافية لديها قدرة باراسيكولوجية اسمها «ثوتوجرافي»، إذ تستطيع تصوير الأشباح والشياطين بأي وسيلة متاحة. وهي حبيبتي بالطبع التي لن أتركها لزوجها السمين الكئيب.

أسامة: زوجها السمين الكئيب، مدرس في كلية آداب طنطا قسم علم النفس. لا أنكر أنه يحب سهير للغاية، لكنه كما ذكرت سمين وكئيب ورخو.

شريف: ابن سهير وأسامة، زوهري مثل جده، يستطيع التواصل مع الجن بسهولة لطبيعته الزوهرية، متمرد، جميل الخلقة كأمه.

رانيا: ابنة سهير وأسامة الكبرى، ووالدة عُمر الذي ورطنا جميعًا مع شيطان الرعب. لا شخصية لها، طويلة كأبيها، مُحبة للنّكد مثله.

مهدي أبركان: ابن ديهيا الأسود، ليس من نسلها، إنما هو زوهري مغربي، قاتل سحرة متسلسل، ليس شريرًا ولا طيبًا، لذلك هو مهم لأسباب تطول شرحها.

مهاب: مذيع صار مشهورًا نوعًا بعد برنامج بعد منتصف الليل، تورطت عائلته من قبل ما شيطان الرعب وفقد أخاه الأصغر عمرو بسببه، جده عمارة قابيل كان عالم روحانيات تسبب في فتح أول بوابة لعبور الشياطين واكتشف طريقة للتحاور معهم عبر مايكروفون عتيق.

حسن: المراهق، صديق عمرو شقيق مهاب، والآن صار في مكانة عمرو وجزءًا من عائلة سهير الممتدة. أنا أحبه بشكل شخصي وأتمنى لو كان ابني.

الحاج مدحت: عم سهير زاهر.

الحاجة مريم: ابنة عم والد سهير زاهر، وزوجة عمها.

ديهيا: أقوى ساحرة على وجه الأرض، وأنا –لاشين- من نسلها.

الفصل الأول

لقد انهارت مملكة ديهيا. كعالِمٍ؛ أرى أنّ انهيارها سيتسبب في اختلال عظيم في التوازن البشري-غير البشري في عالمنا وكافة العوالم الأخرى التي كانت موصولة بالمملكة.

كساحرٍ، أرى أن هذا الانهيار كارثة ما ورائية لا يستطيع أحد التنبؤ بعواقبها. كم عدد الزوهريين المشردين في العالم الآن؟ كم عدد الكائنات الشيطانية والعلوية والسفلية التي تعجز عن العودة لديارها لأنّها في الأساس كانت مطرودة منها لتعاونها مع الساحرة البشرية؟ لن أتساءل عن مصير مهدي وعالية، فأنا أعرف أين هما، لكني أسأل نفسي عما سيفعلانه. عن المعلومات التي يعرفها مهدي، وعن مغبّة يأسه وغضب زوجته. لقد كُسِر الرجل، ومهدي وإن كان يؤمن بالتوازن بين العوالم، فعالية لا تؤمن سوى بالثأر.

الثأر مرة أخرى..

أنظر إلى شاشة حاسوبي المحمول، وأرى ملاحظات البشر عن الحركة غير المعتادة في السماء والأضواء غير المُفسرة. عن انقطاعات الإنترنت وعن الزلازل والبراكين والأوبئة..

لكل شيء تفسير علمي، ولكل شيء قابلية للتفسير على ضوء ما حدث لمملكة ديهيا. كيف أفرق أنا بينهما؟! شياطيني مثلًا تعاني مشكلة بسيطة لكنها قد تتفاقم ما لم أعرف السبب. تعرفون أنني وشياطيني نتأثر بالمجالات الكهرومغناطيسية سلبًا، لذا فإن لي فترة أعاني من عدم كفاءة انتقالي الآني من مكان إلى آخر، مشكلة لها

علاقة بتحديد المكان الذي أريد الانتقال إليه بدقة. آخر مرة حاولت الانتقال فيها إلى شقة مهاب، وجدت نفسي في المول التجاري على بعد عشرة شوارع منه، تحديدًا وسط متجر بيع ملابس أطفال. تجسدت فجأة ولم تكن هذه هي المشكلة، المشكلة في الرعب الذي باغت الجميع، فصرخوا وتفرقوا ولم يعرف أحد بعدها كيف يصف شعوره الذي دفعه للفرار، ولم يعرف أحد سر المخلوق الذي ظهر واختفى خلال ثوان وشوّش كاميرات المراقبة بظهوره.

مشكلة صغيرة أخرى، هو عدم قدرتي على تحديد أماكن الآخرين ورؤيتهم. أنا الآن أعجز عن رؤية سهير وقتما أريد، ويحتاج الأمر إلى محاولات مستمرة حتى أضبط (موجة) رؤيتها. دائمًا أراها في الماضي، بفارق بضع ساعات عن الوقت الذي أحاول رؤيتها فيه.

آه.. مشكلة أخيرة.. عندما أكون في مكان وأرغب في رؤية ماضيه، أعجز عن التمسك بخيط الزمكان، فأجد نفسي أنجرف بلا توقف لأرى ماضي أماكن أخرى أبعد فأبعد. كأنني أحاول أن أرى ما حدث في مكان ما في الجيزة، فأعود –تعود شياطيني- إلى ساعتين مضت لترى أحداثًا عند أطراف القاهرة، ثم أرجع إلى ست ساعات مضت لأرى ما حدث في بني سويف.

ما يحدث له علاقة وثيقة بدفقات الطاقة التي تحررت مع انهيار مملكة ديهيا. أنا الآن تائه كطائر مهاجر يرتدي خوذة من مغناطيس. المِلاحة بدقة مستحيلة، لكنه مضطر للهجرة، لاستكمال الطريق.

يخطر لي وأنا أشرب الشاي متربعًا فوق سطح داري في سيوة، أنني أفقد بوصلتي المعنوية أيضًا. أقول لنفسي: أنت ممسوخ يا

لاشين، ولنتعامل مع هذه الحقيقة كما هي. لا تنس أن لك ثأرًا مع الشياطين الذين قتلوا أخاك وأمك.. تذكر أشلاء أمك يا آدم وتذكر ثأرك. تذكر تمزيق شيطان الرعب لعمر؛ حفيد سهير.. ها أنت تحيد عن مسارك وتفكر في سهير، في مغامراتها وزواجها وابنيها وحفيدها وبرنامجها. ها أنت قد نسيت أنك مجرد شيطان عاد إلى حياتها ليستغلها في تصوير عالم الظلمات وتحديد ما يجري فيه. لماذا؟ لتثأر يا آدم!

يا للخوذة المغناطيسية اللعينة..

تجأر شياطيني:

- آدم.. سهير أداة..

سهير ستعود لزوجها، اتركها تعد واستخدمها..

تلاعب بقلبها.. اغوِها بما تملك ولا يملك زوجها..

تذكّر أن الإغواء لهدف أهم يا آدم..

الشياطين.. ذو الرمح طليق.. جبر حبيس رصد واهن..

أهرمان طليق..

الشياطين التي كانت في أقبية ديهيا طليقة..

مهاب ليس صديقك، سيقتلك لو اضطر للاختيار بينك وبين أي بشري آخر.

مهاب أداة، في عقله ذاكرة مهر؛ كائن سماوي ما كنت لتقترب منه دون أن يفتك بك.

كائن سماوي في عقل مهاب، كائن يحتقر الشياطين ويبيدهم.. تذكر هذا..

تذكر كل الشياطين التي تركتها شِبه طليقة وأنت تتبع سهير كالمسحور.

تذكر واروبال ماما.. تذكر فارس الوباء.. تذكر مامون..

تذكر نبوءة ديهيا بشأنك؛ ستقتل إبليس يا آدم.. وستعتلي عرشه..

إذًا.. لا تسجد لبني آدم حتى وإن كانوا قد تعلموا الأسماء كلها..

أنت إبليس الجديد الأذكى..

- كفى!

أقذف كوب الشاي في غضب إلى الصحراء، فيختفي خلف الرّصد المقام حول مسكني.. ثم يظهر وراءه على بعد عدة أمتار.. لحظة..

الرصد لا يعمل؟!

أهرع إلى أسفل، إلى الصالة الجرداء، إلى الفناء الرملي الكئيب، إلى حيث الكوب. أحمله وأمشي بحذر وأنا أمد يدي أمامي.. أتوقف ثم أقذف الكوب أبعد فيختفي وراء الرصد. هذه المرة يختفي ويظل مختفيًا.

لقد تغير مكان الرّصد، انزاح قرابة مائة متر. هذا خطِر.

لقد تبعت سهير بما يكفي ليحدث كل هذا دون أن ألاحظ. متى كانت آخر مرة بحثت فيها عن قيود للشياطين؟ متى كانت آخر مرة

عثرت فيها على كتاب عهد أو غزوت قبو ساحر؟

أنا أتشتت عن مساري.. يجب أن أعود إليه وإلى حقيقتي التي لا مفر منها.

أنا لست بشريًا، ولن ينسى أحد هذه الحقيقة.

***

حمل لي مهاب صحفة شطائر جبن رومي وشاي، وضعها أمامي ثم تربّع على أريكته -لا يوجد غيرها في صالة شقته- وقال:

- لُقمة. بسم الله. لو كنت أعرف أنك قادم لطهوت لك كبدة إسكندراني.

- أنت تعرف أنني قادم منذ ست ساعات يا مهاب.

- أعني.. حسنًا، لو كنت قد جئت أول الشهر لطهوت لك الكبدة الاسكندراني. في نهاية الشهر لا طعام سوى حساء العدس وشطائر الجبن.

التهمت ثلاثة شطائر على ست قضمات شيطانية بينما أرمق في شرود جوربي مهاب المنتفخين من أعلى بسبب سروال منامته الذي دس طرفيه داخلهما. أكل مهاب ثم ضم كوب الشاي بين كفيه وفرد على فخذيّ نصف البطانية التي يلتحف بها وقال:

- حدائق الأهرام قارسة البرودة ليلًا كما تعرف. أرتدي كلسونين فوق بعضهما ومع ذلك ركبتاي تؤلمانني.. هل تعتقد أن خشونة الركبتين السبب؟

ما لي أنا وزكبتيه؟ أجيبه في جفاف:

- السن يا مهاب. أجسادكم تبلى سريعًا.

نظر لي في ضيق، ثم سحب الغطاء عن فخذيّ. سحبته مرة أخرى نحوي. لا أشعر بالبرد، لكن لماذا يستفزني؟ ما علاقة الغطاء بما قلت؟

- هات البطانية يا لاشين. أنت شباب ولا تحتاج إليها، إلا لو قررت تغطية حاجبيك العجيبين بها.

- ما لك وحاجبي؟!

- ومال لك وبطانيتي؟

جلسنا صامتين هنيهة، ثم سألني:

- لماذا جئت؟

- لدي قضية ما ورائية.

- والأستاذة لم ترغب في المشاركة طبعًا.

- لا أحتاج إلى الأستاذة. ستذهب أنت معي إلى سِكّة خضرة لأنني أريد شخصًا يبدو عاديًا ليرافقني.

- لحظة.. سِكّة خضرة؟ أين تقع؟ ولماذا تريد شخصًا عاديًا؟

- المكان قرب منطقة القلعة، القاهرة. أريد شخصًا عاديًا يستجوب الأهالي هناك عن بعض الأمور التي لاحظتها في المنطقة.

التفت لي مهاب في حماس، ولمعت عيناه وهو يسألني:

- أمور ما ورائية؟ من أي نوع؟ هل ستخبر الأستاذة؟

زفرت في ضيق وقلت له وأنا أطلق العنان لشياطيني بعض الشيء:

- هذه ليست رحلة للقلعة. أنا أريدك أن تنفذ مهمة معينة فقط.

أجاب في استنكار وهو يقاوم رعب شياطيني:

- وهل تعتقد يا لاشين أنني مجرد شخص عادي؟ لو كنت تبحث عن أي شخص والسلام فما كنت لتأتي إلى هنا. أنت تريد مهاب الذي يعرف كيف يتواصل مع الناس، وكيف يجلس بينهم دون أن يثير ذعرهم. تريد مهاب كزوجي عينين إضافيتين تلاحظ وتحلل معك.

- ليكن.. متى سنذهب؟

- سأذهب معك بشرط.

زفرت زفرة أقوى، وانعقد حاجباي. لا أعرف إن كنت أطلق العنان أكثر لشياطيني، أم أحاول كبت رغبتي في الحكي. قلت له:

- لا شروط. أنت ترغب في الذهاب، ولو أخبرتك بتفاصيل الموضوع لذهبت دوني، وربما أخذت معك الأستاذة أيضًا وقلبتما التحقيق إلى سيرك. لا شروط يا مهاب، والرحيل غدًا في التاسعة صباحًا.

شرب مهاب بضع رشفات من كوبه، ثم وضعه على المنضدة وقال في برود:

- أنت تريدني.. أنت تحتاج إليّ. أنا متأكد أن للأمر علاقة بالشياطين طالما استفزك. شرطي أن يكون لي الحق في المشاركة

في التخلص من الشيطان لو عثرنا على واحد. أنا لم أنس عمرو أخي ولا عُمر ابن رانيا.

ابن رانيا يا مهاب؟ تهمس لي شياطيني: أرأيت؟ سيصبحون عائلة بشرية متماسكة، وسيستغنون عن وجودك. منهم الزوهريون ومنهم الشجعان ومنهم العلماء. تعامل معهم على هذا الأساس.. واحذر يا آدم.. احذر..

قلت له أخيرًا وأنا أقوم قاصدًا باب الشقة:

- لك ما تريد.. فقط.. لا غير. سأمر عليك في التاسعة.

قال مهاب وهو يحاول أن يقوم دون أن يتعثر في البطانية:

- هل ستعود إلى سيوة مرة أخرى؟ مستحيل. امضِ الليل هنا، حسن نائم بالداخل. نَم أنت على فراشي وأنا سأنام هنا.

- شكرًا.

دون كلمة أخرى رحلت، وقدت سيارتي إلى مكان خال من طريق دهشور، وأوقفتها هناك. نظرت إلى السماء وتذكرت الصور والأخبار التي أثارت فضولي وجعلتني أنتبه إلى نفسي وإلى هدفي الأساسي.

العالم ينهار بسبب ما فعلت عمدًا وبلا قصد.. وكل شيء يدفعني لمصيري الذي طال هربي منه.

***

الفصل الثاني

سكة خضرة

ديسمبر 2024

كنت قد استأجرت سيارة متواضعة، مررت بها على مهاب صباحًا، وتحاشيت الصعود إلى شقته كي لا أقابل حسن. كفاني تعلقًا بهما..

ركب مهاب ثم ألقى على حِجري كيسًا صغير وقال:

- وجدتُ لك إصبعي سجق في آخر الفريزر. أعتقد أن الجبن الرومي أثار حفيظتك أمس. أنت تعرف أن آخر الشهر..

تجاهلت ما يقول. الأحمق يظن أن سبب جفائي خيبة أملي في العشاء. قلت له وأنا ألتهم الشطيرة شِبه الفارغة:

- أنا أعمل في مرصد حلوان، وأنت صحافي. معك الكارنيه المزيف، أليس كذلك؟

- معي.. لكن لماذا تعمل أنت في المرصد؟ وماذا تعمل هناك تحديدًا؟ ولماذا لست صحافيًا مثلي؟

- لن نحدد عملي بالضبط في المرصد، ولن يسأل أحد. الظواهر التي أريد البحث فيها لها علاقة بخليط من العلوم ولا أريد أن أبدو مريبًا لو طرحت أسأله متخصصة وأنا صحافي. ثم إن انزوائي وشرودي يلائمان هذه الوظيفة أكثر. سيلتف الجميع حولك ويتركونني وشأني. في الحقيبة خلفك كاميرا ومسجل صوت وميكروفون. استخدمهم على سبيل التمويه.

سألني مهاب عن طبيعة الأسئلة التي أريده أن يطرحها، فأخبرته وطلبت منه الارتجال لو لزم الأمر، وهو أمر آخر يبرع مهاب فيه من خلال خبرته في برنامج بعد منتصف الليل.

وصلنا منطقة السيدة عائشة في العاشرة إلا ربع، وأوقفنا السيارة قرب مسجد الرفاعي، وشققنا طريقنا بين الشوارع المكتظة التي تضيق بلا انقطاع كلما صعدنا إلى منطقة سور القلعة المهدّم.

وقف مهاب ينظر إلى القاهرة القديمة من أعلى، بيننا وبينها غلالة ضباب وتلوث صفراء. مآذِن، مقابر، مآذن، بيوت متهدمة، مقابر، مآذن، غيّات حمام خشبية ملونة بنقوش هندسية شعبية، ثم المزيد من المآذن..

- جميل يا لاشين. لم أرَ هذا المكان من قبل. جميل وحزين وعتيق.

- نعم.. يعطيني انطباعًا بأنه كسرة خبز جافة وحيدة، كانت ساخنة شهية من قبل، والآن لا يجرؤ أحد على التخلص منها لأنها (نعمة)، ولا يريد أحد أن يأكلها أيضًا. ستظل هكذا حتى تتحلل..

- تشبيه غريب.. لكنه جيد بالنسبة لنصف شيطان يكره كل شيء حتى أصابع قدميه.

نظرت له بجانب عينيّ وصمتُ. لن ينسى أنني نصف شيطان، حتى لو كان يمزح.

- كيف سنبدأ يا لاشين؟

- من البداية. حيث تتجمع عينة عشوائية من سكان المنطقة.

***

وكانت البداية عند مطعم الحاج برجاس للمأكولات الشعبية. المكان عبارة عن محل صغير فيه صناديق بلاستيكية وأجولة خضروات وحوض غسيل، وعند عتبته ڤاترينة فيها أوعية البطاطس المهروسة والفول والباذنجان والسلاطات. على يسار المحل موقد تعلوه مقلاة الطعمية الضخمة يلتف حولها الأهالي كل يمسك بقرطاس ورقي داخل كيس صغير.

على يمين المحل، أربع مناضد معدنية وبضعة مقاعد لمن يرغب في الجلوس، إلا أن أغلب الراغبين في ذلك يقصدون المقهى المجاور، وهو بدوره محل آخر صغير حوائطه مغطاة بالقيشاني، يعلق شاشة عرض مسطحة تذيع قراءة من القرآن الكريم على إحدى المحطات الفضائية الخليجية.

طلب لنا مهاب شطائر، ثم جلسنا إلى منضدة قريبة من الأهالي الذين ينتظرون طعميتهم. قال مهاب لبائع الطعمية:

- صباح الفل يا باشا.. هل لي في بعض المخلل هنا؟

- أمرك.. طبق مخلل وطبق باذنجان للباشا يا علاء.

رفع الشاب خلف المقلاة الشبكة المحمّلة بالطعمية الساخنة وضربها ضربتين على حافة المقلاة ثم وضعها فوق المصفاة وبدأ ينتقي الطعمية المحشوة لمن أرادها، والكبيرة حسب الطلب وهو يسأل مهاب بينما ينظر لي في قلق من وقت لآخر:

- هل تعمل مع علي مهدي؟

أجابه مهاب:

- مَن علي مهدي؟

- أعرف أنكم لا تحبون أن يعرف أحد أنكم تعلمون مع علي مهدي. ضريبة الشهرة، هه؟

نظر لي مهاب، فقلت:

- أنا من مرصد حلوان و..

وكزني مهاب وقد لاحظ أن بائع الطعمية ضيّق عينيه وانسحبت من وجهه أمارات الفهم، وقال للبائع:

- سنعمل بالفعل مع علي مهدي. لكن ليظل هذا سرًا، هه؟

- عيوني. فيلم جديد؟ لقد طلبت منه من قبل أن يظهر المحل في فيلم من أفلامه، فهز رأسه ولم يفعل شيئًا. الشهرة تغير النفوس.

- علي مهدي رجل صالح، لكن مسألة تحديد مواقع التصوير ليس في يده. المخرج هو مَن يقرر.

- يجوز.. الصبر يا رجال.. النساء أولًا، كم تريدين؟ بعشرة جنيهات؟ محشوّة أم سادة؟

انشغل الرجل مع زبائنه، فملت على مهاب أهمس:

- مَن علي مهدي؟

- الممثل يا لاشين. ألم تشاهد مسلسل الإغواء القاتل؟ ولا مسلسل الصعود هبوطًا؟

- هل هذه أسماء مسلسلات؟ لا أشاهد التلفاز كثيرًا.

- لهذا تحتاج إليّ، اشكرني لاحقًا، لكن دعني الآن أتصرف مع الرجل.

قام مهاب إلى بائع الفلافل وهو يقول:

- أنا صحافي، المفترض أن أقابل علي مهدي لتغطية أخبار فيلمه الجديد. وهذا صديقي، يعمل في مرصد حلوان لأن الفيلم يدور هناك.

نظر البائع إليّ من فوق كتف مهاب وقال لها همسًا:

- يشبه الفنان محمد خميس.

- نعم.. له الحاجبان نفساهما.

- والأنف.. والعينان. لو أنه الفنان محمد خميس أخبرني فقط ولن أخبر أحدًا.

- لا ليس هو..

نظر البائع مرة أخرى إليّ في غير اقتناع، ثم بدأ يأخذ من وعاء عجينة الطعمية كراتٍ صغيرةً يلقيها إلى الزيت، بينما الناس ينظرون نحوي في قلق ويتهامسون.

طلب مهاب من المقهى شايًا لي وله ولبائع الفلافل الذي عرفت أن اسمه محمد همّام، ولبائع الشطائر، ثم جلس يسأل:

- أريد أن أعرف منكم يا رجال بعض الأمور عن حياة الفنان علي مهدي. سألتقط لكم صورًا مع الخبر.

قال همام:

- الفنان علي من أطيب خلق الله. رغم أن الله قد فتح عليه من وَسَع، فلا زال يزور بيته القديم هنا ويراعي غيّة الحمام بنفسه.

وأشار همام إلى غيّة ضخمة مرتفعة خلف المباني القصيرة. ثم شرع يحكي عن ذكريات الفنان التي أشك أن الفنان يعرف عنها شيئًا. أصابني الملل. متى سنبدأ في الاستجواب الفعلي؟ أرسلت إلى مهاب رسالة عبر واتساب:

انجز يا مهاب. سَله عن التشويش.. عن الأصوات.. عن الرائحة الغريبة. هذه أمور مذكورة في الصحف وأنت صحافي! ما دخل الأفلام في الأمر؟!

نظر مهاب للهاتف ثم لي، وأغمض عينيه وهز رأسه هزة بطيئة بمعنى اصبر. قال مهاب لبائع الشطائر المدعو رفعت:

- أنا رأيتك من قبل يا نجم. هل أجرى صحافي آخر مقابلة معك قريبًا؟ أعتقد أنني رأيت صورتك مثلًا أو ظهرت في لقاء مصور.

لقد صار مهاب بارعًا في استدراج الناس. أجاب رفعت:

- لا لم أظهر في الصور، لكن جاء بالفعل صحافيون من قبل وسألونا عن الزلازل في المنطقة.

هتف همام:

- نعم، وسألوا عن الرائحة الغريبة التي تظهر وتختفي. قيل أن هذا كان تسريب غاز، والزلازل من انفجار مواسير الغاز أيضًا. على العموم

الغاز لا يصل إلى هنا أساسًا، ويبدو أن المشكلة في مكان آخر قريب. الله هو الحافظ. الحاج برجاس طمأننا..

أضاف رفعت:

- لا يحدث أي شيء غريب هنا. المكان أمان ونحن محاطون ببيوت الله ومقامات الأولياء.

كنت –أنا لاشين- قد رأيت شواهدَ قبور في أقبية عدد كبير من المنازل هنا. يظهر شاهد القبر من نافذة القبو الملاصقة لأرضية الشارع. يبدو أن تلك الأقبية كانت طوابق أرضية في زمن ما، وارتفع الطريق ليدفنها وما فيها إلى ما تحت مستواه.

هذه ظاهرة مألوفة في مناطق القاهرة القديمة.

سألهما مهاب:

- متى يأتي أستاذ علي مهدي؟

- اليوم الخميس، سيأتي قرب المغرب. (مزمازيل) راوية أخته تقيم في البيت.

- وحدها؟

أشاح همام بوجهه وغمغم شيئًا على غرار «ربنا يُستر على ولايانا»، والتفت يكمل عمله.

مِلت على مهاب وهمست:

- الرائحة.. هذه من الأمور التي لفتت نظري. حسب وصف الأهالي لها في الأخبار، لم تكن رائحة غاز طبيعي.

- هل هم عاجزون عن التفريق بين رائحة الغاز والروائح الأخرى؟

- عندما لا يجد المرء في عقله تفسيرًا آخر، يلجأ إلى أقرب تفسير. لو شممت رائحة تشبه رائحة السمك في بيتك، فماذا سيكون تفسيرك؟

- أن في البيت سمكًا خارج البرّاد، أو أن فأرًا مات في مكان ما.

- بالضبط، رغم أن رائحة السمك تختلف عن رائحة تحلل فأر. لكن ماذا قد يكون التفسير غير ذلك؟

- مشكلة في الكهرباء. تعلمت هذا من أستاذة سهير في البرنامج. كانت تحكي عن التقصي الماورائي وأسباب الروائح الغريبة في البيوت.

الأستاذة مرة أخرى.. سحقًا! أكملت كأنني لم أسمع شيئًا:

- الناس هنا قد شموا رائحة وصفها البعض على أنها رائحة أشبه برائحة الكلور المخفف.

- ماذا قد تكون غير أنها رائحة كلور مخفف؟

- السؤال الأهم، لماذا زعم مَن زعِم أنها رائحة تسريب غاز؟

حدق إليّ مهاب هنيهة، ثم قال لهمام:

- هل تشم هذه الرائحة؟ تشبه الكلور؟ اعذرني، جيوبي الأنفية حساسة.

- هذه الرائحة؟ لها فترة هنا. اعتدنا عليها. كلنا مصابون بالتهاب

الجيوب الأنفية، لا شيء يُقلِق. الله هو الحافظ.

إلا أن الرائحة لم تكن موجودة الآن. أضاف مهاب:

- أم أن ما أشم رائحة غاز من الأسطوانة؟

- رائحة الطعمية تغطي على كل شيء. لكن لا تقلق، الأسطوانة بخير.

نظرت إلى أسطوانة الغاز خلفه، لأجده يضعها فوق موقد صغير مشتعل كي تسخن فيخرج منها ما تبقى من غاز. قد يظن البعض أن هذا خطر، وهو بالفعل كذلك، لكن كل المطاعم تفعل الشيء ذاته، والحذِر منهم يغمر الأسطوانة في ماء مغلي.

شكرنا الرجلين كي لا نثير التساؤلات أكثر، ثم انتقلنا لنجلس في المقهى وطلبنا قهوة. قبل أن نجلس، شعرنا بهزّة أرضية خفيفة فتصلبنا حتى مرّت. أعتقد أنها دامت لأكثر من دقيقة. نظرنا حولنا فلم نجد مَن تأثر بالأمر.

ثم فاحت الرائحة الغريبة.

الآن أشمها.. رائحة تشبه رائحة النظافة، رائحة ما بعد المطر، رائحة الكلور المخفف.

كنت قد توقّعت أن أشم رائحة الكبريت مثلًا، وهو مميز للنشاط الشيطاني إلى جانب الهزّات الأرضية والملاحظات الأخرى التي جمعتها عن المكان. لكن..

سعل همام، ومسح رفعت عينيه الدامعتين، وأكملا عملهما. أشعر

الآن بلسعة خفيفة في حلقي مع تزايد الرائحة. سعل مهاب بدوره وقال:

- يبدو أنه غاز كلور فعلًا. أيُعقَل ألا يُعلّق أحد على هذه الرائحة؟!

- غريبة فعلًا.

هزة سريعة أخرى، ثم انبعاث أكبر للرائحة. المارة يسعلون..

«ألم آمرك أن ترتدي بلوفر تحت هذه السترة الخفيفة؟»

«يبدو أن الشتاء باغتنا مبكرًا..»

«برد المروحة.. معروف..»

«هل عادت الكورونا؟»

«ربنا يُستر.. عبد الحكيم مصاب بـ.. اللهم احفظنا في الرئة..»

المزيد من السعال..

تشوّش الإرسال على الشاشة المُعلّقة، قال مهاب أنه لاحظ هذا منذ الهزّة الأرضية الأولى. مع استمرار التشويش أغلق عامِل المقهى التلفاز وأكمل عمله. أشعر بضيق غير مُحدّد.. انزعاج كأنني.. كأنني محبوس في قفص فاراداي(1) الذي كنت أختبئ فيه من ذي الرمح في الماضي. سأل مهاب العامِل:

- يا نجم، لماذا أغلقت التلفاز؟

- الكهرباء غير مضبوطة في المنطقة، وتشوش الشاشات دائمًا.

- ما مشكلة الكهرباء؟

- لا أحد يعرف. مشاكل الكهرباء في كل مكان. ربنا يُستر. ساعة أو اثنتان وسيعود التلفاز للعمل.

سألني مهاب همسًا:

- وأنت بالطبع تعرف موضوع الكهرباء هذا ولم تخبرني؟ لماذا لا تشاركني ما تعرف؟! لن أفر منك وأحقق وحدي! لماذا قد أفعل ذلك يا لاشين؟ تبدو مرتابًا أكثر من اللازم. هل.. هل لهذا علاقة بعودة الأستاذة للدكتور أسامة؟

نظرت إليه عاقدًا حاجبيّ، ويبدو أن شياطيني أطلت من عينيّ، فتراجع مهاب صامتًا. نعم.. أنا حانق.. أليس فيّ جزء بشري؟ -وجزء شيطاني؟- يشعر بالغيرة والخيانة وقِلة الحيلة أمام رجل بلا ميزة سوى أنه عثر على حبيبتي أولًا؟!

- أنت تريد مزيدًا من المعلومات، سأخبرك بها. لا داعي للحديث أكثر عن أموري الشخصية.

غمغم مهاب شيئًا عن شطائر السجق التي لم ترق لي رغم أنه (يشعل أصابعه العشرة شمعًا) لإرضائي، فقمت وأشرت له أن يتبعني.

مشينا في الحارة الضيقة الرطبة، وأنا أعرض على الهاتف كل ما جمعت عما يحدث في سِكّة خضرة..

***

منزل علي المهدي عند نهاية الحارة بالغة الطول، الصاعدة إلى قمة إحدى تِباب المنطقة. لو انعطفنا يسارًا لوصلنا إلى متسع عن يمينه سور القلعة القديم المتهدّم، حيث فجوات في الجدران يختبئ فيها

المشردون ومعاقرو الخمور ومدمنو المخدرات.

وقفت ومهاب أمام الباب الحديدي، ندق الجرس وننظر إلى الطوابق الثلاثة فوقنا. كانت الساعة الثانية عشرة إلا ربع، وقيل لنا أن راوية –شقيقة علي- تستيقظ مبكرًا.

بعد دقائق فتحت لنا مراهقة مستديرة الوجه، تعاني سِمنة عظيمة في منطقة البطن. سألتنا عمّن نريد، فأخبرناها. نظرت لي في شك وسألتني:

- أنت ممثل، أليس كذلك؟

قبل أن أجيب، قال مهاب:

- آه، نعم.. وأنا صحافي.

غابت الفتاة قليلًا بالداخل، فمال مهاب يهمس لي:

- أنت ممثل لو افترض أي من سكان الحارة أنك كذلك. لن نؤكد فقط ما إن كنت الفنان محمد خميس أو لا. لا يقاوم أحد الثقة في الممثلين.

- ولو عرف علي أنني لست محمد خميس؟

- مَن سيقول أنك محمد خميس يا أخي؟ أنت ممثل يبحث عن فرصة. لو سألك أحد إن كنت محمد خميس، أجبه أنك لست هو. اترك لي قيادة الأمور يا لاشين، وركز أنت في التفاصيل.

عادت الفتاة التي عرفنا أن اسمها بيرين، ودعتنا للدخول.

المنزل مبني على طراز كان شائعًا في المناطق الشعبية في

الخمسينيات، كأنه شقة واحدة مبنية فوق بعضها البعض. المدخل ضيق في نهايته باب خشبي مغلق. صعدنا خلف بيرين التي شمّرت طرف عباءتها فظهرت من تحتها ساقاها في سروال ترينتج برتقالي وخفين بلاستيكيين، وفتحت لنا بابًا وأشارت لنا لندخل، ففعلنا.

غرفة الاستقبال واسعة، حوّلها الفنان وأخته إلى قاعة راقية ذات سمت فني شعبي متعمّد. طنافس ملونة، معلقات بتطريز فن الخيامية لمشاهد معقدة بديعة تُظل طيور في حالات سكون وطيران تتوسطها حمامتان متقابلتان بيضاويتان. أبسطة (كليم) يدوية الصنع بألوان مبهجة. ستائر مشغولة بنقوش النخيل وأبراج الحمام. هذا مكان مصطنع لكنه جميل حقًا. ابتسمت رغمًا عني واخترت أن أجلس على الأريكة الجلدية المغطاة بمفرش ملون، وجلس مهاب إلى جواري. قالت بيرين وهي تشغل التكييف:

- سأشغله فقط لتغيير الهواء. لو بردتما أغلقاه. ماذا تشربان؟

طلبنا شايًا، وقبل أن تخرج بيرين لتجلب لنا طلبنا، دخلت راوية ترتدي بلوزة بيضاء بنقش أزهار صفراء، وسروالَ جينز واسعًا وحجابًا أصفر. عندما رأيتها تذكرت أنني أعرف أخاها، وقد شاهدت صورته على إحدى اللوحات الإعلانية على كوبري 6 أكتوبر في رمضان الماضي. هذا الجمال –الوسامة في حالته- الفريد الذي لا تعرف له منبعًا. هذه ملامح أوروبية تمامًا، لكنّ وهجًا شرقيًا ما يضيء تلك البشرة المحمرة والعينين الرماديتين.

- أهلا وسهلًا. تفضلا. هاتي واجب الضيافة يا بيرين.

- حاضر يا مدام.

جلست راوية وهي تحدق إليّ في قلق. ضمّت كفيها للحظات ثم أغلقت التكييف. أعتقد أن شياطيني تضايقها. سألتنا عما نريده، فأجاب مهاب:

- أنا صحافي، وكنت آمل في كتابة موضوع عن الفنان علي المهدي. عن حياته وهوايته.

- جرأة أن تأتي مباشرة دون موعد.

- أحببت أن أجرب حظي. قيل لنا أنه سيأتي اليوم.

- نعم. لكنه لن يقابلكما دون موعد مسبق.

- إذًا خذي لنا منه موعد.

- سأتصل به. لكن لا أضمن أن يكون الموعد اليوم.

جلسنا ننظر إلى بعضنا البعض. فتحت فمها تقول شيئًا وهي تنظر لي، فنظرت لها نظرة شيطانية بمعنى «لا تقولي أنني أشبه محمد خميس»، لكنها قالت:

- هل رأيتك من قبل؟ قالت لي بيرين أنك ممثل.

- الحقيقة لم أمثل من قبل.. أعني في التلفاز..

قال مهاب:

- ممثل مسرح مستقل.. تفهمين هذه الأمور. يمثل مسرحية الملك لير خمس مرات سنويًا.

- وأتيت كي تطلب من علي أن تمثل في التلفاز؟

- لا. أتيت مع صديقي فقط لأسلم على الفنان. في الأساس أعمل في مرصد حلوان. على سيرة المرصد. هل شعرت بتلك الهزة الأرضية منذ قليل؟

- نعم. الهزّات طبيعية هنا. أغلب المنازل قديمة وأعمال الطرق قرب القلعة تؤثر عليها.

لا زالت تنظر لي في شك، إلا أنها لا ترفض وجودنا، وإلا لماذا تجلس حتى الآن؟ لماذا تنظر إليّ تحديدًا ولا تولي مهاب أي اهتمام؟

سمعنا صوت بيرين ينادي في إلحاح من مكان ما بالأعلى، فقامت راوية إليها وهي لا تبعد عينيها عني. همس لي مهاب:

- معجبة؟

- لا بالطبع. إنها تشعر بشياطيني، مع ذلك لا تنفر مني. غريبة.

- هل تعتقد أنها ساحرة؟ أو أن لها علاقة بذلك النشاط الشيطاني في المكان؟

- ربما. لا أصدق أننا وجدنا أصل المشكلة بهذه السرعة. عمومًا إن كان لها يد في الأمر، فهي لا تقيم أي طقوس شيطانية أو سحرية هنا. شياطيني لا تشعر بشيء.

قال لي مهاب أن عليّ ألا أطمئن إلى شياطيني أو ما يخبرونني به، فقد خدعوني مرارًا لمصلحتهم. نعم.. يجب ألا أثق في أي شخص حتى شياطيني.

ومرت ربع ساعة.. نصف ساعة.. خرج مهاب إلى الدّرج فتبعته

ونظرنا إلى أعلى. هتف مهاب:

- يا.. أستاذة راوية؟ يا آنسة بيرين؟

- أنصت يا مهاب..

صوت غريب لا أستطيع تمييزه، مختلط بصوت دقات غير منتظمة. كرر مهاب نداءه، فجاءنا صوت راوية يهتف: «لحظة..»

سمعنا بابًا يُفتَح، ثم نزلت راوية بحجاب شبِه مفكوك وبقعة دم صغيرة على كُم بلوزتها. توقفت عند أول الدرج وقالت في ارتباك:

- لقد.. سقطت بيرين وهي.. تنظف. معذرة. هلا تركت لي رقم هاتفك؟ سأكلم علي وأتصل بك.

وجهت كلامها لي كالعادة. كتبت لها رقم هاتفي ورقم هاتف مهاب على ورقة من دفتر الأخير، وتركتها لها في الصالون. صعدت هي سريعًا إلى حيث جاءت، ثم سمعنا صوت الباب يُغلق. نظر لي مهاب مبتسمًا وهمس:

- تُلقي نظرة؟

- على أي شيء؟

- على أي شيء! نحن هنا لجمع معلومات عشوائية. نحن نرتجل ولو كنت مكانك لخططت للأمر بشكل مختلف. على الأقل كنت سأبحث عن مكان مبيت هنا لسبب أو لآخر. لن نعرف شيئًا في زيارة أو اثنتين.

لا أعرف لماذا لم يخطر لي هذا ببال. ربما لأنني لم أكن أرغب في

الاستعانة بمهاب من الأساس. ربما لأنني تصورت أنني قادر على معرفة ما أريد دون أن ينتبه إليّ أحد.

مهاب بارع في التحقيقات الميدانية، وقد حضر كثيرًا من تحقيقات سهير غير المنشورة ولا المُذاعة في البرنامج. هذا، فضلًا عن أنه بشري ذو قبول عند كل من يراه.

صعد مهاب بضع درجات فصعدت خلفه. عند نهاية مجموعة السلالم التالية باب، دفعه مهاب ببطء لنلمح حمامًا، فأغلقه مرة أخرى. هذا المنزل كما قلت من قبل، شقة رأسية.

في الطابق التالي باب آخر، يبدو أنه هو الذي خرجت من وراءه راوية منذ قليل. صوت الارتطام الآن أعلى، أما الصوت الآخر فلم أميزه لكنه صار أقرب.

رائحة بخور. صوت غمغمات.. همسات.. تشويش من راديو ما..

ثم سمعنا صوت تهشم خشب بالأعلى، وانفجر الصوت الذي لم أكن أميزه، وأميزه الآن وأنا أرى هذا السرب الأبيض الضارب للرمادي يندفع نحونا من أعلى..

غطيت وجهي لا شعوريًا بذراع، وبالآخر جذبت مهاب من سترته لينزل بسرعة.

تخبطنا ونحن نهبط، تضربنا الكائنات في اندفاعها إلى الأسفل. خدوش وخمشات تغطي ذراعي وجبيني.

بحثنا عن باب المنزل بالأسفل. تحسسنا الحوائط ونحن لا نجرؤ على فتح أعيننا.

مئات الحمامات تدور حولنا، تتخبط في الحوائط وفينا. صوت الرفرفة العنيف يصم آذاننا. إعصار الطيور يدور ويدفعنا إلى المنتصف. أفتح عينًا واحدة وأحاول أن أصل إلى الباب. ترتطم حمامة به فستقط على الأرض ترفرف وتنثر الدماء.

أفتح الباب فيدفعني مهاب إلى الخارج، وتخرج معنا الطيور الغاضبة مندفعة إلى السماء.

تجمّد كل مَن في الحارة وهم ينظرون إلى السماء. مَن يمشي تعلّقت قدمه فوق الهواء. توقفت سيدة عن نشر الغسل وظلت متدلية من الشرفة. كدت أرى الماء المتدفق من خرطوم يمسكه أحدهم ليرش به الأرض يتوقف هو الآخر كأنه صار جليدًا.

في اللحظة ذاتها، انطلق صوت أذان الظهر عبر مكبر صوت مربوط إلى بناية مجاورة للمسجد الصغير. ما أن نطق المؤذن «الله أكبر» حتى تزايد صوت الخروشة وتعطّل الجهاز. ترددت أصوات المؤذنين الآخرين من كل صوب. شعرت بضغط داخل جسدي. صداع.. تشوّش. تقول شياطيني:

«آدم.. نحن نتألم.. ما الذي يحدث؟»

أغمغم أهنا من بين أسناني:

- أنتم الشياطين لا أنا! ما الذي يحدث؟

لا أتلقى ردًا. تعود الحياة للحارة مرة أخرى. يقترب منا محمد همام وهو ينظر إلى السماء، ثم يقول:

- ما الذي حدث؟

أجاب مهاب:

- كنا في طريقنا إلى الخارج عندما.. فرّ الحمام هاربًا إلى أسفل. هل حدث هذا من قبل؟

- المفترض أن بيرين تفتح له النوافذ ليخرج، وتصعد إلى الغية قبل المغرب لتلوح له بالعلم فيعود. لم يحدث أن فرّ الحمام من قبل. على أي حال سيعود.. لا تقلقا.

- لكن هل حدث هذا من قبل؟

- لا.

وعاد كل إلى ما كان يفعله. غريب هذا. مع كل ما يحدث لا يبدو أن أحدًا يهتم. قلت هذا لمهاب ونحن نسير نحو المقهى، فقال لي:

- منذ متى والمصري يهتم أو يتساءل عن أي شيء مهما بدت غرابته؟ نحن سادة التأقلم يا لاشين. لو غرقت مصر لنمت لنا زعانف وخياشيم في الصباح التالي.

***

في الثانية إلا ثلث وصل علي المهدي. نزل من سيارته الرياضية الصغيرة فلمع شعره الذهبي بشمس بعد منتصف الظهيرة، وتوردّت وجنتاه.

ترك مهاب كوب الشاي –حمدًا لله، فقد التهبت معدتانا من كثرة الشاي والقهوة منذ الصباح- وهرع نحوه. نظرت إليهما ومهاب يتبادل

معه بعض الكلمات، ثم أشار لي مهاب أن أقترب ففعلت. قال علي:

- أهلًا وسهلًا. لم تخبرني راوية بوجودكما. فرار الحمام تسبب في ذعر كبير لها ولبيرين.

استأذن منا على وعد بتحديد موعد لاحق، فأخبره مهاب أننا سنأخذ جولة في المكان ونلتقط بعض الصور، وسنمر عليه ليلًا. ابتسم علي في ضيق، وفتح باب منزله بمفتاحه ودخل.

عدنا في بؤس إلى المقهى. اليوم يفر من بين أيدينا ولم نحصل على معلومة توحد الله، إلا أنني تأكدت الآن أن المكان موبوء بشيء. لكن ما هو؟ فرار الحمام على هذا النحو مع صوت الدقات غير المنتظمة من الغرفة التي كانت فيها راوية يشير إلى أن هذا المنزل له دور في الغرابة المحيطة بالمكان.

قلت لمهاب:

- اسمع، لو أن هناك شياطين هنا، فهي تبحث عن عائل بشري. لم تدخل الشياطين في جسد بشري دون ساحر يُدخِلها، إذًا في الحارة ساحر، وكتاب عهد، وربما بوابة عبور أيضًا حتى ولو مؤقتة. كل هذا التشويش على الأجهزة وجنون الطيور والرائحة الغريبة تشير إلى تواجد شيطاني كثيف. لأجل هذا يجب أن نفترق..

- نفترق؟!

- نعم. الوقت يمر بسرعة ولن نستطيع التواجد هنا كثيرًا وإلا أثرنا الشبهات. أنت صحافي، وأنا أعمل في مرصد حلوان. ستبحث أنت في عقول الأهالي، وسأبحث أنا عن الساحر أو مكان البوابة أو

موضع النشاط الشيطاني عمومًا. سنكون على تواصل عبر الهاتف.

تركته وكدت أنصرف لولا تذكرت أننا آخر الشهر، فتركت له حفنة مال وجدتها في جيبي وانطلقت إلى السيارة حيث حقيبتي وأدواتي.

سأجد هذا الشيطان، وسأقيده بأي طريقة لأعرف أين باقي الشياطين الفارة في كل صوب. يجب أن يعود التوازن للعالم في أقرب وقت.

تهمس لي شياطيني:

«يجب أن تعود قدراتك في أقرب وقت.. شحقًا للعالم..»

***

الفصل الثالث

التالي مكتوب بطريقة روائية تجمع بين ما مررت -أنا لاشين- به، وما مر به مهاب في الوقت نفسه وعرفته لاحقًا، لأنني ببساطة كنت عاجزًا عن معرفة ما يفعله إلا بعدما يفعله بقرابة ساعة.

***

دفع مهاب ثمن ما شربنا، وأخرج الكاميرا ومسجل الصوت من جيبه، وعاد إلى رفعت ومحمد همام اللذين كانا يجلسان داخل المحل الظليل يأكلان غداءهما.

- تفضّل يا أستاذ، بسم الله.

- شكرًا يا رفعت. يبدو أن علي المهدي سيكون مشغولًا اليوم بموضوع الحمام هذا. لكن يجب أن أحصل على موضوع للمجلة اليوم. هذا أكل عيشي كما تعرفان، وكنت أراهن الجميع في المجلة على أنني قادر على كتابة موضوع عن علي المهدي يكشف لنا بعض الأسرار عنه.

- نعم، كلنا يجري على أكل عيشه.

ترنّع مهاب إلى جوارهما فلم يترك لهما مجالًا للتملص من الإجابة على أسئلته. شغّل مسجل الصوت وسألهما:

- منذ متى وعلي المهدي يعيش هنا؟

أجاب همام وهو يغترف الفول في نصف رغيف كامل:

- ياه يا أستاذ. والده الحاج مهدي ومن قبله أجداده عاشوا هنا.

لا أعني في الحارة نفسها، لكن في المنطقة عمومًا. هذا منزل الحاج مهدي، وهو مَن بنى غيّة الحمام العظيمة هذه، وملأها بأفضل أنواع الزغاليل المستوردة، إلا أن للحمام الشقلباظ مكانة خاصة عنده وعندنا. أيام كان الحاج حيًّا، كنا نجتمع نحن الأطفال عنده لنشاهد تلك الحركات البهلوانية التي يؤديها هذا النوع. كان يحب الجميع رحمة الله عليه. علي ليس مثله، لكن لا تكتب هذا طبعًا. اكتب أنه مثل أبيه وأنه ورث عنه حب تربية الحمام.. اكتب أي شيء على مزاجك. لا نريده أن يتضايق..

نظر همام إلى رفعت نظرة لم يفهمها مهاب، فقال رفعت:

- لا يوجد شيء آخر نقوله عنه. منذ توفي الحاج قبل عشرة أعوام، وهو وأخته منعزلان. يعيش علي في التجمع الخامس، ويأتي يوميًا أو كل يومين للاطمئنان على أخته والحمام الذي يدخل به مسابقات عالمية. هل تعرف أن لديه فرد حمام باثني عشر ألف جنيه؟ اسمه شفيق..

- ليس شفيق، شَفَق. كلنا نظن أنه شفيق لكن بيرين تقول أنه شفق، وأنه بطل عالمي في السابقات. أنا لا أعرف إلا سباقات الحمام الزاجل في سوهاج.

سأل مهاب:

- مَن هي بيرين؟ اسمها غريب قليلًا.

- بيرين حفيدة الحاج صالح متولي، من كبار الحارة هنا. ليست خادمة، هي فقط تساعد راوية في أمور المنزل والحمام، وتؤنسها.

كان الحاج صالح صديقًا للحاج مهدي والحاج محمود برجاس صاحب هذا المطعم. أطال الله عمرهما ورحم الحاج مهدي.

عاد مهاب يسألهما عن الحاج مهدي، وعن أصوله فأخبراه أنه من القاهرة أبًا عن جد، ويقال أنه من أصل چركسي، وأن جده الأكبر كان مملوكًا. يعرف مهاب أن كل أشقر في مصر من أصل چركسي أو فرنسي –إن كان من المنصورة- ما لم يثبت العكس. هذه من أكثر الأساطير شيوعًا عن أصول المصريين.

شكرهما مهاب وطلب منهما مقابلة الحاج برجاس، فطلبا منه الانتظار حتى صلاة العصر وملاقاته بعد الصلاة مباشرة.

***

مشيت في تؤدة حول المنطقة وأنا أحمل جهاز قياس شدة الموجات الكهرومغناطيسية.

لتواجد الشياطين عدّة سمات، أغلبها يُلاحظ بالعين المُجرّدة. إن كان للشيطان صرح هنا، فكل شيء حوله سيحمل سمت ذلك الشيطان وخِتمه Sigil، وهو يحمل اسمه الحقيقي مكتوبًا مع نقل رمزي لهيئته وقواه. الشياطين كيانات متمركزة حول ذاتها، ولا تقيم في مكان إلا ووسمته باسمها، كأنها طفل بلا وازع من ضمير يخدش اسمه على كل سطح يراه.

أتكلم هنا عن الشياطين ذات المراتب العُليا، لا عبيد الشياطين التي يمتلئ بها العالم قبل وبعد ما حدث لمملكة ديهيا.

الظواهر في هذا المكان قد تشير إلى تواجد شيطان هنا، وهو ليس

تواجدًا جديدًا. يمكن القول بأن شيطانًا عظيمًا فر من أقبية ديهيا ليعود إلى حيث الساحر الذي ساعده في العبور إلى عالمنا، أو إلى حيث البوابة التي عبر منها منذ.. ربما منذ أشهر أو قرون.

يُقال أن منطقة القلعة وما حولها تثير في بعض النفوس ضيقًا ما. لا بسبب المقابر التي تحتل مساحات كبيرة منها، بل لسبب غير معروف.

أجوّل تحت سفح التبّة التي تحمل بقايا سور القلعة. قراءات العدّاد لا تكذب. لكن هل تكذب شياطيني؟

«لا نشعر بشياطين هنا يا آدم.. لا يوجد شيء سوى بعض الجن غفّار المقابر والخلاء، والكثير من الأشباح».

شياطيني كذبت عليّ من قبل. كل الشياطين كاذبة ولن تَصدُق ما لم يكن لها مصلحة واضحة. يجب أن أعود إلى كوني ساحرًا بلا شياطين يبحث عن شيطان أو ساحر آخر.

لست في حاجة إلى مساعدة أحد.

يُقال أن لمنطقة الدرب الأحمر القريبة أسطورة مروّعة. عندما ذبح محمد علي الكبير مماليكه، سالت الدماء أنهارًا من القلعة، نزلت إلى أسفل تحفر دربًا خاصًا بها، تعرّج ودار حول نفسه ليُشكّل دائرة حول مناطق بيت الرزّاز وباب الخلق وباب زويلة، مرورًا بشارعي صلاح سالم وبور سعيد الحاليين. مساحة شاسعة لا يمكن أن تنحت فيها الدماء مسارًا، لكنها أسطورة تفسر تسمية المنطقة بالدرب الأحمر. ثمة تفسير أقل تهويلًا لهذا الاسم، وهو أن دماء المماليك لوثت

المكان المحدود المحيط بالقلعة وعجز الناس عن تنظيف اللون الأحمر الذي تشربته الصخور المسامية هناك، فسُمي المكان بالدرب الأحمر.

أيًا كان، فلا شك أن المنطقة من أكثر مناطق مصر التي شهدت قتالًا وذبحًا ودماءً، وأينما وُجد القتل، فُتِحت بوابات الشياطين.

بعد ضياع أغلب أدواتي السحرية، صرت الآن أرتجل أكثر، أصنع أدواتٍ بنفسي ولا أجربها لأنني.. لأنني كالعادة ابتعدت عن مطاردة الشياطين وحبسها وإجراء تجاربي عليها.

لو جرّبت بعضًا مما ابتكرت اليوم، ماذا قد تكون النتيجة؟ هل سيؤذى سكان المنطقة؟

«هل سيؤذى مهاب.. هه يا آدم؟ هه؟»

تبًا.. صمتًا!

لإنقاذ البشرية وأسرِ مَا فرّ من ديهيا، يجب أن أضحي بالبعض. هذا ثمن بخس مقابل السلام. الأرض تهتز هنا وتطلق الروائح الغريبة. الناس مرضى. الأجهزة تُشوّش. الحمام يهتاج ويفر. الناس لا تكترث لأن المصريون لا يكترثون..

حسنًا.. سأبدأ..

***

انتهى مهاب من صلاة العصر في مسجد الحارة الصغير الذي عرف أنه من بناء الحاج برجاس والحاج مهدي والحاج صالح، ثم انطلق

مع رفعت النحيل داكن الشمرة إلى الرجل المقصود، والذي كان واقفًا مع شابين آخرين أمام محل صغير لبيع وإصلاح الهواتف المحمولة. تعارف برجاس ومهاب سريعًا، وتركهما رفعت ليعود إلى المحل. قال مهاب وهو يرفع كاميرته ليلتقط صورة للحاج أبيض الوجه والشعر:

- هل لي بصورة يا حاج لأجل التحقيق؟

- لا داعي يا بني.

- أنت كبير الحارة، أليس كذلك؟

- من كبرائها، والله أكبر وأعلى. التقط الصورة كما تشاء.

ضحك الرجل خجلًا، فالتقط له مهاب صورة وهو يتمنى لو كانت سهير معه. اتجه مهاب مع الحاج مرة أخرى إلى المقهى وتقلصت معدته. المزيد من الشاي أو القهوة أو الأعشاب التي لا يطيق مذاقها.

تحدث مهاب مع برجاس عن علي المهدي، وعن والده، ولم يخرج منه بأكثر مما عرف. افتعل مهاب السعال ثم قال عرضًا:

- رائحة غريبة يا حاج. كانت واضحة أكثر في الصباح، وسألت عن مصدرها فقالوا لي أنه تسريب غاز. أليس هذا خطرًا؟

- تسريب غاز في مكان مفتوح ليس خطرًا يا بني. الله هو الحافظ.

- أعتقد أن الرائحة لا تشبه رائحة الغاز. أقرب للكلور..

- بل غاز. سألت في شركة الغاز وأكدوا ذلك.

- والهزّات الأرضية؟ أخشى أن تنفجر مواسير الغاز تحت الأرض مثلًا.

- الهزّات من أعمال تجديدات الطرق.

شعر مهاب أن برجاس لا يريد الحديث في الأمر أكثر، لكن مهاب كان قد تقمّص شخصية الصحافي اللزج، فسأل:

- هل سمعت بما حدث لحمام الأستاذ علي مهدي؟

- نعم. لا بد أن بيرين فعلت شيئًا استفزه.

- كنا بالداخل وقتها نحاول أن نأخذ موعدًا من الأستاذة راوية. قالت لنا أن بيرين سقطت وهي تنظف، ثم فر الحمام بعدها. كان يرفرف بعنف.

- تنتاب بيرين نوبات صرع من وقت لآخر. كان الله في عونها.

- اسمها غريب، أليس كذلك؟

- أمها كانت تحب المسلسلات التركية. على أي حال لم يعد أحد هنا يسمي تلك الأسماء التي يظن أن الناس تسميها لأبنائها في المناطق المشابهة.

بينما يتكلمان، هوت حمامة بين ساقي مهاب وكسر عنقها. بعد لحظات سقطت أخرى على بعد أربعة أمتار، ثم ثالثة في مقلاة الزيت، وراحت ترفرف حتى غرقت في الزيت البارد.

حدق مهاب إلى الحمامة الأقرب. لا تشبه الحمام العادي، بل بيضاء تمامًا، ذات منقار دقيق وملامح جميلة، يغطي الريش الطويل ساقيها ويمتد إلى ما حولهما كأنه أشعة شمس في رسم طفل. قام برجاس وضم سترته الثقيلة حول جسده المكتنز ونظر إلى السماء، ثم إلى

الحمامة على الأرض. مال يلتقطها، وعرّى ساقها ليكشف عن طوق معدني صغير يحيط بساقها البرتقالية، محفور عليه رقم طويل.

- هذا فرد حمام من حمام مهدي. شقلباظ ممن كان والده يربيه. سيحزن الولد كثيرًا.

- ما الذي يحدث؟ لماذا يسقط الحمام هكذا؟

- لا أعرف يا بني. ربما أصابه مرض ما. ربما أرهق نفسه في الطيران.

التقط مهاب بضع صور، ثم جلس مكانه وبرجاس يجمع ما سقط من حمام بنفسه، ويضعه في كيس بلاستيكي ويذهب به إلى منزل علي مهدي.

وقف النادِل خلف مهاب ليأخذ الصحفة التي تحمل كوبيهما وقال:

- أشياء غريبة تحدث مؤخرًا. لا بد أنها من علامات الساعة.

التفت مهاب نحوه متسائلًا، فأردف الرجل:

- أشياء غريبة. الفيس بوك يمتلئ بها. سمعتك تسأل الحاج عن الرائحة الغريبة. نعم، هذه ليست رائحة غاز. هل تعرف السبب؟ لأن الغاز لا يصل إلى هذه المنطقة ولا لأي منطقة قريبة. أتعرف شيئًا أيضًا؟

جلس النادِل إلى جوار مهاب ومال عليه هامسًا:

- أربع نساء من بنات المنطقة أنجبن أطفال مشوهين خلال هذا العام. لم يحدث هذا من قبل.

- مشوهين؟ صِف لي.

- لم أرَ أيهم، لكن الناس تتكلم هنا. طفل منهم حي حتى الآن والثلاثة الآخرين ماتوا. أنت صحافي، وربما تستطيع استبيان الأمر أكثر. هل حدث هذا في مناطق أخرى؟ لديّ نظرية..

رفع مهاب حاجبيه وهو يتساءل عن (نظرية) النادل ذي الشارب الرفيع.

- نظريتي أن القيامة ستقوم قريبًا. وأن.. لا بد أن ترى المولود الذي أكلمك عنه. الكل يتشاءم منه لكننا لا نقول هذا علنًا رحمة بأمه المسكينة وأبيه الغلبان.

- أرشدني إلى مكان هذا الطفل وعرفني بأبيه إذًا. لكن ما هي نظريتك؟

- نظريتي أن..

نظر النادِل إلى أثر دماء الحمامة على الأرض وقال:

- أن (الواد) يزن هذا هو المسيخ الدجال.

***

في الرابعة والنصف، جلست في السيارة أرسم على سطح التابلت الذي يُظهر خريطة المنطقة أرقام القراءات التي التقطها جهازي لأحاول أن أتبين مركز نشاط الموجات الكهرومغناطيسية.

كلما رفعت عينيّ عن الشاشة، رأيت الوجوه تنظر إليّ في شيء من القلق والفضول. الأطفال تتحاشى المرور إلى جوار السيارة

من الأساس. لفترة من حياتي –العامين السابقين تحديدًا- لم يكن لشياطيني تأثير فج على المحيطين بي مثلما كانت في الماضي –قبل عثوري على سهير مرة أخرى- والآن يعود هذا التأثير.

والسبب؟

لا يهم. المهم أنني أنا هو أنا.. لا مزيد من محاولات الشفاء من مرض هو جوهرك ذاته.

تصورت أن يكون مركز هذا النشاط مكانًا ما في سكة خضرة، إلا أن كل شيء يشير إلى المقابر التي تغطي كيلومترات قليلة أمام القلعة. البوابة هنا؟ في المقابر؟ مكان عظيم لإخفائها. لن يجرؤ أحد على نبش المنطقة إلا..

لقد أزالت بعض أعمال الطرق جزءًا من تلك المقابر. ماذا لو كشفت عن بوابة شياطين دون أن قصد؟ لو أن هذا سهّل لساحر الوصول إليها دون عناء الخوض في تلك المقابر المُكدسة المأهولة بالفقراء، فهذا سيسهل عليّ أنا أيضًا المهمة ذاتها.

هذا عن البوابة، فأين الشيطان أو الساحر؟

بالتأكيد في مكان قريب، وسيكشفه الخِتم. المشكلة هنا أنني لا أعرف عن أي ختم أبحث.

ذُكِرت أختام الشياطين في النسخة الأصلية من كتاب مفاتيح الملك سليمان الصغرى، وهو كتاب مجهول المؤلف، استقى الكثير من السحر القوطي والأوروبي، خاصة فيما يتعلق بأسماء الشياطين ورُتَبِها وأختامها.

استخدم السحر الشرقي بعض مما في ذلك الكتاب، وزاد عليه عناصر السحر الشرق أوسطي والفارسي. ليس هذا ما يهمنا الآن. المهم هو البحث عن أي شيء يقودني لاستنتاج هوية الشيطان الموجود هنا لأعرف كيف سأتعامل معه.

التفت خلفي إلى حقيبتي وفتحتها. بالداخل آخر ابتكاراتي السحرية التي لا أعرف مدى تأثيرها. لكني سأجربها عندما يخيم الظلام ويخفيني خلف أستاره.

***

كتب مهاب لي على واتساب:

أرسلت لك التسجيل الصوتي وصور الحمام وصورة الحاج برجاس إن كانت ستفيدك في شيء. المهم، أريدك أن تأتي معي لفحص هذا الطفل الذي يقال أنه المسيخ الدجال. لا تنس أن تضيف على ما يجري في سكة خضرة تشوه المواليد وتحاشي الجميع لحديث أكثر عن علي مهدي. مصادفة غريبة أن نصطدم بالحل فور وصولنا.

لا أظنها مصادفة.. لا. أولئك القوم يعرفون أن ما يحدث غريب، ويميلون إلى تفسيره في سياق معين يمنعهم عن البوح به الحاج برجاس أو شخص آخر أو ربما خوف عام من مجهول.

القوم يعرفون أن علي مهدي وأخته وبيته مصدر قلق، ويعجزون عن تفسير خوفهم، لذا تكلموا عنه مع أول غريب يبدو أنه قادر على التحقيق في الأمر.

لرأي مهاب وجاهة. أي طفل سيترصد بأقرب ضيف ليحكي له عما يقلقه من أسرار البيت حتى وإن كان مكالمة هاتفية لم يفهم فحواها.

لكني لن أتمكن من رؤية الطفل المسيخ للأسف، فما يحدث الآن قرب المقابر يلفت نظري.

في الخامسة أوقفت السيارة هناك كي أبدأ تجربتي، فوجدت حشدًا مجتمعًا حول حفرة قرب أعمال الطريق. ترجلت ودفعت نفسي بينهم. أفسحوا لي ولف كل واحد منهم ملابسه حول جسده أكثر من البرد المفاجئ الذي تسببت فيه.

على طرف الحفرة رجلان مصابان بحروق متفرقة في منطقة الوجه والصدر والذراعين، حولهما خمسة رجال آخرون يبعدون الناس بشيء من العنف عن الحفرة والمصابين.

سألت:

- ماذا حدث؟

نظر لي واحد الثلاثة وقال في توجس:

- بسيطة. ابتعدوا من هنا. الآن!

قال آخر:

- كانا يعملان في تصليح مواسير الغاز. ابتعدوا يا رجال، ربما تنفجر المواسير في أي لحظة.

غاز؟ الحجة ذاتها مجددًا. الرائحة الغريبة أقوى ما يكون هنا. رائحة أقرب للكلور بالفعل. هذا ليس غازًا، وهؤلاء يتسترون على

شيء.

قلت في حزم وأنا أقترب من الحفرة:

- أنا مختص في هذه الأمور. دعوني أرَ.

اقترب الحشد من خلفي أكثر وقد انتصر فضولهم على خوفهم مني. زأرت فيهم تاركًا لشياطيني بعض الحرية:

- ابتعدوا حالًا.

لن أقول أنهم تفرقوا، بل تبعثروا. تعثر واحد منهم في فراره وزحف على الأرض بضعة أمتار ثم انطلق يعدو. فرغ المكان حولنا من أي بشري. رأيت في أعين الرجال الثلاثة رعبًا لم أره من قبل، إلا أنهم ظلوا متمسكين بالمصابين وهم يرتجفون.

- مَن أنت؟

- أنا هو أنا. ماذا في الحفرة؟ ما هذه الرائحة؟

- ارحل من هنا.. أ.. أرجوك..

ابتعد واحد منهم يتكلم في هاتف محمول. نزلت إلى الحفرة التي يزيد عمقها عن خمسة أمتار. طرف الحفرة مائل، والحفرة نفسها محفورة منذ ساعات لأكثر. وأنا بالأسفل سمعت الذي كان يتحدث في الهاتف يصيح:

- الحاج يأمرنا بالرحيل. هيا.

- لكن..

- هيا!

مَن هو الحاج؟ كل شيخ في مصر هو حاجٌ ما لم يكن مسيحيًا أو «باشا» مِن الكِبار.

رحل الرجال مع المصابين، ووقفت أنظر إلى الحفرة حولي. قاع الحفرة ليس قاعًا صخريًا أو ترابيًا، بل هو معدني بلا أي تفاصيل. ما هذا؟ طرقت على الجدران، ما خلفها خال. الرائحة الشبيهة بالكلور خانقة هنا. أغشيتي المخاطية تلتهب فتعالجها شياطيني.

أصعد على الحبل المتدلي كما نزلت، الشمس تغرب لكن الضوء القليل يبين لي ما غاب عن عينيّ منذ قليل وراء الزحام. المقابر غرب الحفرة مفروشة بالحمام الميت. أكثر من خمسين واحدة متناثرة. أنواع لم أرها من قبل، أغلبها من النوع الذي أرسل إليّ مهاب صورته؛ الشقلباظ.

لكلمة الشقلباظ معنى لا يُشرَح، ولا يفهمه سوى المصريين. ذلك النوع من الحمام يؤدي حركات بهلوانية في الهواء، يدور وينقلب بسرعة. عندما يمر المصري بأيام غريبة تنقلب فيها حياته رأسًا على عقِب، يقول أن الأحوال قد «ضربت شقلباظًا».

أنا – لاشين- ضربت حياتي عدة شقلباظات منذ طفولتي. إلا أن أعنفها –ويا للغرابة- كان عودة سهير إلى أسامة. هذا «شقلباظ» كان متوقعًا إلى درجة أنني تجاهلته عمدًا كي لا أجن. أنا الذي أعرف أن صلاح حياة سهير في عودتها لأسامة. أنا الذي سعيت للتوفيق بينهما من قبل..

ها أنا أُجن حقًا. أفقد الأمل.. أفقد الإنسانية.

لتذهب الإنسانية إلى داهية..

***

دخل مهاب مدخل المنزل الرطب المظلم وانتظر أن يعود إليه نادل المقهى بالإذن من «حريم البيت». كان قد أخبر سالم والد الطفل منذ نصف ساعة بأمر الصحافي الذي جاء يكتب عن ابنه.

لاحظ مهاب صوت راديو من مكان ما، يتداخل مع صوت محمد محيي الذي يغنيه في صوت آخر، أقرب لكلمات بلغة لا يفهمها.

خرج النادِل مع سالم ليُرحب الأخير بمهاب ويُدخله إلى صالون ضيق بلا نوافذ. جلس مهاب على الأريكة وأخرج كاميرته ومسجل الصوت من الحقيبة. نظر إلى هاتفه المحمول فلم يجد مني ردًا على رسالته. جلس سالم أمامه إلى جواره النادل المتحمس.

- أهلًا بك. قال لي حسام إنك ستكتب عن ابني. الحقيقة أنا أريد أن يُعالج الولد على نفقة الدولة. أعتقد أن خبرًا في الصحف عن الموضوع، أو ربما لقاءً في التلفاز مع مدام منى الشاذلي قد يساعد الولد.

- سنرى ما يمكننا أن نفعله. هل هو ابنك الوحيد؟

- نعم. أجهِضت زوجتي مرتين. سِلفتها لعنها الله رَمَت لها عملًا يوم زفافنا على عتبة الشقة. من يومها وحياتنا سواد في سواد. الحمد لله على كل شيء.

- هل تعرف بشأن النساء الأخريات اللاتي ولدن أطفالًا مشوّهة؟

- أعرف. الموضوع منتشر هنا منذ زمن بالمناسبة. يقولون أن بسم الله الرحمن الرحيم من سكان المقابر هم السبب. لكنها منطقتنا ولن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا. المهم.. اسعَ لي في موضوع العلاج على نفقة الدولة. اتفقنا؟

- إن شاء الله.. ماذا تعمل يا أستاذ سالم؟

- ميكانيكي سيارات. «رقبتي سدادة». أي سيارة تركب؟

- ليس معي سيارة.

- يمكن أن أعثر لك على سيارة مستعملة استعمالًا نظيف. عيوني لك. سأحضر الولد.

خرج سالم من الغرفة، ثم عاد حاملًا وليدًا صارخًا وضعه بلا اكتراث بين يدي مهاب الذي قرب فقط منه مسجل الصوت. نظر مهاب إلى الصغير ورأى التشوه الواضح في منتصف الوجه خاصة منطقة الأنف سقف الحلق. عينه اليمنى مجرد فجوة، اليسرى مبيضة ثابتة. مدّ النادي يده ليعري ظهر الطفل دون استئذان من أبيه وهو يقول:

- انتظر.. يوجد أمر أكثر غرابة..

كاد الصغير يسقط من بين يدي مهاب وهو يحدق إلى أسفل ظهره حيث ذيل قصر أصغر حجمًا من عقلة الإصبع. قال سالم:

- الناس يقولون أنه جن، لكنه ابني ضنايا. لا يستطيع أن يرضع

بشكل طبيعي، ويبدو أنه لا يرى بعينه السليمة. يقولون أنهم يجرون عمليات جراحية على نفقة الدولة لمَن هم في حالته. هذا ليس المسيخ الدجال كما يقولون، بل هو ابن حلال مُصفى. غير أن زوجة أخي..

قال مهاب وهو يعيد الطفل لأبيه:

- مفهوم.. ألقت لها عملًا على عتبة الشقة. سأرى ما يمكنني فعله. أريد صورة فقط.

التقط مهاب صورة، ثم سأل الرجلين همسًا في اهتمام مصطنع:

- على سيرة الأعمال وبسم الله الرحمن الرحيم. ألم تلاحظا أشياء غريبة أخرى في المنطقة؟ أشياء مخيفة؟

نظر سالم إلى النادل الذي قال سريعًا:

- إنه صحافي، أي أنه يعرف الكثير عن هذه الأمور. اسمع يا أستاذ. لنا مُدة هنا لا نستطيع فتح أي إذاعة على أي راديو دون تشويش، بل إننا أحيانًا نسمع كلمات بلغة عفاريتي لا نفهما.

- نعم.. سمعتها وأنا في مدخل البناية.

- ألم أخبرك؟! لا أريد أن ألوم على أحد، لكننا هنا كلنا أسرة واحدة كبيرة، والحاج برجاس والحاج صالح متولي لا يتركاننا أبدًا.. لكن..

- لكن؟

قال سالم وهو يناول رضيعه لذراعين أنثويين امتدتا من خلف الباب:

- يبدو أنهما يعرفان شيئًا ولا يريدان إخبارنا به. هل تتذكر يا حسام يوم شحّ السكّر في البلد ولم يشأ الحاج صالح متولي أن يقلقنا، ودار على الجمعيات الاستهلاكية ليوفر لنا ما يكفينا؟

- نعم.. لهذا أقول أننا أسرة كبيرة، وإن ضلّ أحد أبناء الأسرة الكبيرة، يحاول الكِبار أن يحموه من غضب الآخرين وأن يصلحوه سرًا.

- هذا صحيح. ومَن تظنه قد ضل في هذه الأسرة؟

- علي مهدي..

قال سالم وهو يأخذ صحفة الشاي من الذراعين الممدودتين عبر الباب:

- بل أخته. علي عمِل ممثلًا ورغم ما على هذه الوظيفة من ملاحظات، لكنه شاب صالح. المشكلة أنه ترك حبل أخته على الغارِب. ستر الله على ولايانا.

- دعنا من الخوض في الأعراض يا أستاذ سالم..

- مَن خاض في الأعراض؟ ماذا فهمت؟ لا لا.. أنا أقصد أنها مشت في سكة الأعمال والعياذ بالله. تزوجت مرة واحدة ومات زوجها بعد يومين محترقًا، ولم تتزوج مرة أخرى. شابة بسم الله ما شاء الله بهذا الجمال، لماذا لا تتزوج؟

- هل هذا دليل على أنها ساحرة؟

كرر سالم حكايته عن زوجها الذي مات محترقًا في سيارته،

وأضاف إلى هذا أن الرائحةَ الغريبة والهزاتِ الأرضيةَ والأطفالَ المشوهين والتشويشاتِ وانقطاعَ البثّ عن مكبر صوت الجامع، كلها ترافقت مع عودة راوية إلى الحارة. سأل مهاب:

- هل تعني أن راوية لم تكن تسكن في الحارة من قبل؟

- وُلِدت راوية هنا، وكان كل شيء على ما يرام حتى عادت منذ أقل من سنة.

- لكنكم لا تعانون من تلك الظواهر الغريبة إلا منذ.. أسابيع؟

- لكن هذا لم يحدث إلا منذ عادت! دعك من كل هذا، ألم ترَ ما حدث للحمّام؟!

- نعم.. لكنها هنا منذ عام تقريبًا، لماذا ربطتم ما حدث للحمام بها؟

- لأنه حمام أبيها! لا بد أنه غاضب عليها ويحاول أن يعبر عن رأيه من الآخرة!

شرب مهاب الشاي على جرعة واحدة كأنه ينتحر من سخف ما يقولون. يبدو أنهم قرروا إلصاق كل البلايا بالساحرة الشريرة الجميلة التي لم تختر واحدًا منهم.

لكن مهاب سمع شيئًا في المنزل، ويعرف أن راوية تخفي أمرًا، إلا أن هذا لا يجعلها الساحرة الشريرة بالطبع.

استأذن مهاب في راديو ليسمع صوت التداخل جيدًا، فامتدت الذراعان بموبايل يتدلى منه سماعة تعمل عمل الهوائي. سمع مهاب صوت أغنية مصرية من أغاني الراب لم يفهم منها شيئًا، وعلى

خلفيتها التشويش ذاته. سجل مهاب ذلك الصوت وأرسله لي، ثم راح يبحث عن موجات أخرى أكثر وضوحًا وهو يتذكر ما تعلمه من سهير.

لقد استجوب الشهود ويبدو أن الأمر أكثر تعقيدًا مما تصور. منهم من اقتنع بتفسيرات برجاس، ومنهم من تساوره الشكوك في نشاط ما ورائي، ومنهم من أيقن أن راوية هي سبب كل هذا.

يجب أن يتأكد من صدق كل زعم على حِدة.

صدح صوت من كبر صوت يقول: الله.. الله..

يتردد الصوت قويًا، فيغمغم النادل حسام: «ونعم بالله». يرى سالم التساؤل في عيني مهاب فيقول:

- البقية في حياتك. عزاء هيثم ابن الأستاذ عطية، قريب الحاج متولي. لم يقولوا سبب الوفاة. ربما كان السبب معاقرة الخمر.

غمغم حسام:

- أو المخدرات.. أو المشي البطّال. كان شابًا كالورد، لكن أصدقاء السوء..

سأل مهاب:

- هل كان له أصدقاء سوء، أم أنه تخمين منكم؟

- بل كان له أصدقاء سوء بالطبع. آخر فترة كنا نراه في منطقة المقابر تارة، وعن سور القلعة القديم تارة؛ ذلك المكان الذين يتعاطون فيه. لا بد أنه مات بجرعة زائدة، وإلا فلماذا يخفون سبب الوفاة؟

حكّ سالم قفاه وقال:

- على سيرة الأمور المخيفة. هل تعرف أن بالأعلى، عند سور القلعة القديم وحشًا يُدعى المِزيّرة؟ امرأة جسدها من دروع حديدية ومسامير تغوي الشباب وتلقي بيهم في بئر القلعة.

هز مهاب رأسه وقد أيقن أنه سيتأرجح بينهم إلى يوم القيامة دون أن يخرج بشيء. علا صوت قراءة القرآن من مكبر الصوت، فلم يعد أيهم يسمع الآخر.

انصرف مهاب وهو يقرأ شفتي سالم يذكره بألا ينسى أمر العلاج على نفقة الدولة. خرج الرجلان خلف مهاب. تبعاه وهو يمشي متجهًا إلى بيت علي مهدي. نظر مهاب وراءه ليراهما خلفه بمترين، يبتسمان. سألهما إن كانا يريدان شيئًا، فلم يسمعاه جيدًا.

بعد منزل علي المهدي صوان العزاء الكبير. اتجه مهاب إليه وهو يعاين منزل الممثل ذا الطوابق الثلاثة والغيّة الضخمة فوقه بنقوشها الشعبية المميزة. لفت نظره أنها مختلفة بالفعل عن أي غيّة أخرى. تلك النقوش غير الشائعة والتي تشبه الدوائر الثلاث الموصولة ببعضها من المنتصف، كأنها زهرة صغيرة أو دوائر من تلك التي تعبتها عرائس المولد خلف ظهرها.

من أعلى رأى مهاب راوية تطل على الشارع، تنظر في شرود إلى سرادق العزاء المنير وهي ترتدي حجابًا أسود. لمحته في الشارع فابتسمت في تحفُّظ. لا زالت سيارة أخيها أمام الباب. اقترب مهاب من السرادق فوجد رجالًا يقفون عند بدايته، وشعر بمن يقف من خلفه، ليرى سالم وحسام. سبقاه ليسلما على أهل المتوفى، فحذا

مهاب حذوهما، وجلس إلى جوارهما بالداخل. قال له سالم مبتسمًا:

- صاحب واجب. شكر الله سعيك.

استمر المقرئ المتبرع على كرسيه في القراءة، وقام حسام يساعد في تقديم القهوة للمعزين. وجد مهاب فنجانًا ورقيًا ساخنًا في يده. تقلصت معدته. سأل حسام عن أي الواقفين هو الحاج صالح متولي، فأشار إلى الرجل الأصهب خشن الشعر. خطر لمهاب خاطر عن شكل علي مهدي وأخته، وعن شكل برجاس وصالح متولي. كلهم شُقر.. هل كلهم چراكسة أيضًا؟

بعد دقائق رأى مهاب الحاج برجاس وعلي مهدي يدخلان السرادق، بينما تقف راوية عند بيتهم تنظر إليهم هنيهة، ثم تدخل مرة أخرى.

وبينما الجميع جلوس يستمعون إلى آيات الذكر الحكيم، سمعوا صوت صرخات ورأوا المارة ينظرون إلى السماء. خرج مَن في السرادق إلى الحارة الضيقة. اخضرّت وجوههم من الضوء المنعكس عليها، ضوء أخضر مزرق يتماوج على صفحة السماء.

وعرف مهاب أنه يرى شفقًا قطبيًا.. في مصر..

***

الفصل الرابع

السادسة والنصف. أظلمت السماء إلى حد كبير.

الأرض تحت المقابر ساخنة.

استحضار الشياطين قائم على رسم رموز مسطحة والنطق ببعض الكلمات ذات الترددات المؤثرة. أسر الشيطان (قد) يحتاج إلى عائل، وقد لا يحتاج.. هذا ما اكتشفته آخر أبحاثي في علوم السحر القوطي خلال ألشهر السابقة.

عندما كنت أأسر الشياطين من قبل، كنت أستخدم طريقة ديهيا في الاستدعاء من بوابة شياطين أعرف مكانها، وهذا ما فعلت عندما استحضرت الشيطان أهرمان(2) وحبسته في جسد خنزير. هذه هي طريقة الأوراسيين(3).

أنا اليوم لا أعرف مكان بوابة الشياطين هنا تحديدًا، لكنه في مكان ما بين المقابر وسور القلعة القديم. الحفرة التي وجدتها ليست بوابة، لكن ربما تكون البوابة داخلها، وأحدهم بنى حولها حاجزًا معدنيًا. لكن منذ متى والحواجز الفيزيائية تحجب بوابات العبور؟

لو اتبعت الطريقة القوطية، فلا لزوم لمعرفة مكان البوابة، لكني في حاجة إلى معرفة اسم الشيطان الذي أظنه يستولي على المنطقة.

ماذا سيحدث لو أخطأت في اسم الشيطان؟ سيحضر، وسأصرفه، لكني سأعجز عن استحضار غيره في نفس المكان مرة أخرى.

كيف سأعرف اسم الشيطان الساكن هذه المنطقة؟ توجد عدة طرق، أولها الأعراض التي يعاني منها أهل المكان. الشيطان الدوق أجارِس –حسب النسخة الغربية من مفاتيح سليمان الصغرى- يتسبب في الزلال في أثناء تواجده. شياطين أخرى قد تتسبب في موت الحيوانات –لا الحمام تحديدًا- أو التصارع بين الناس حتى القتل. المكان لا يعاني من تأثير شيطان محدد..

أنظر إلى الرقعة الوحيدة التي وجدتها خالية من المقابر والأعين المتلصصة. أخرِج من حقيبتي كُرة شاطئ شفافة ضخمة غير منفوخة، وأضع إلى جوارها العصي الستة والحِبال التي أخرجتها من صندوق سيارتي.

الطريقة الثانية لمعرفة هوية الشيطان هي الحيوانات التي تظهر بكثافة في منطقة محددة لا يشيع فيها تواجدها. الشيطان الملك بعل يعلن عن ظهوره بالذباب الكثيف بلا مصدر. الشيطان الدوق أجاريس تظهر التماسيح في أثناء وجوده. إلا أن أيًا من الشياطين التي أعرفها لا يتسبب في ظهور الحمام، فضلًا عن أن ذلك الحمام حقيقي ومصدره معروف.

أربط العصي الستة إلى بعضها البعض مكونًا شكلًا هرميًا ذا أربعة أوجه. طول ضلعه 91.44 سم بالضبط. أضع الكرة داخل المجسم وأنفخها حتى لا تخرج من أي وجه من أوجه الهرم. النتيجة النهائية أشبه بهذا المخطط..

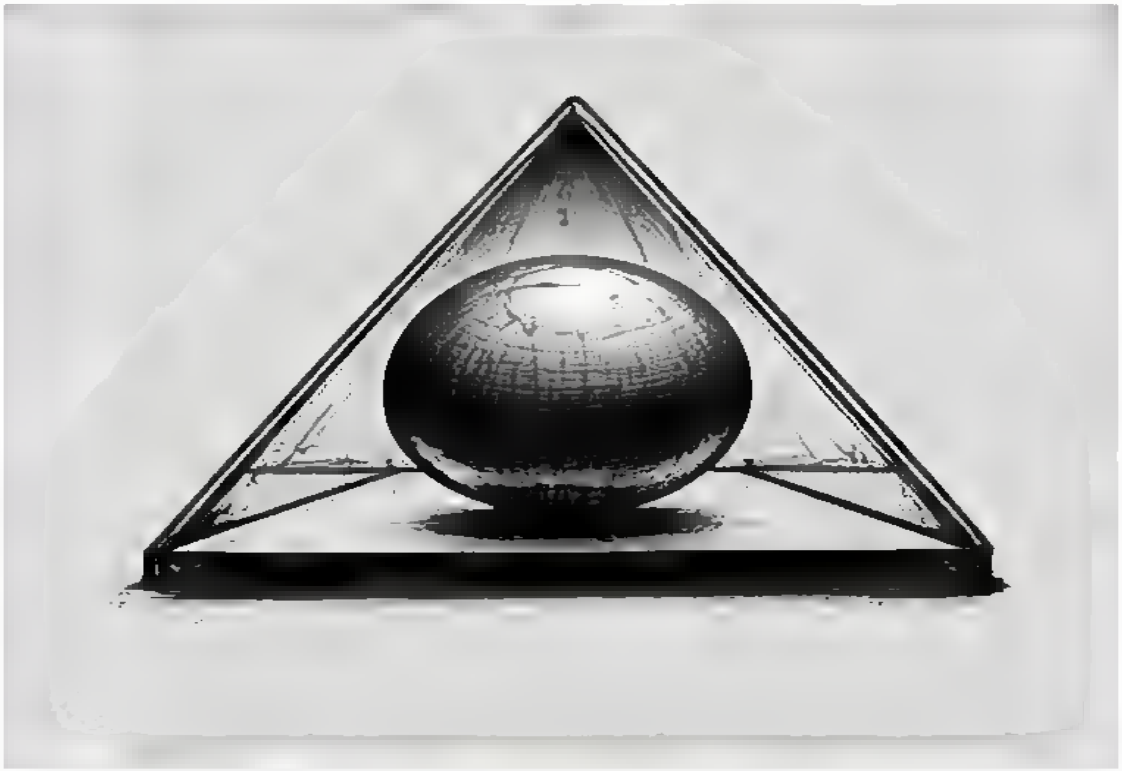

هذا هو تجسيم مثلث تتراجراماتون السحري، أو المثلث السليماني – وأنا أكره هذه التسمية- المثلث الأصلي يشبه هذا الرسم المرفق ، لكنني محوت بعض التفاصيل كي لا يتمكن أحد من استخدامه. أما عن المكتوب فلا شأن لأحد به. إن وجدتم هذا الرسم في أي مكان فروا منه فراركم من الجحيم.

الطريقة الثالثة هي معرفة الشيطان من آثاره على المكان، ولا أعني هنا آثاره التدميرية، بل من خِتمه. الواضح هنا المقابر، السور، الحمام..

ثم رسائل مهاب الأخيرة عن راوية والمسيخ والعلاج على نفقة الدولة..

لو فكرت في الحمام لعرفت أن أمامي عدة خيارات، وتضم جميع الأختام التي أذكرها رمزًا يشبه النقش على غيّة آل مهدي. أولًا الشيطان فلاوروس، دوق الجحيم الشهير. مزيته –إن كانت للشياطين مزايا- أنه لن يستطيع أن يكذب حال دخل إلى المثلث السحري الذي رسمته. فلاوروس يحرق أعداء الساحر الذي يواليه.

أتذكر راوية وزوجها..

ختم فلاوروس كما ترون فيه جناحان ونقوش داخل ثلاث دوائر.

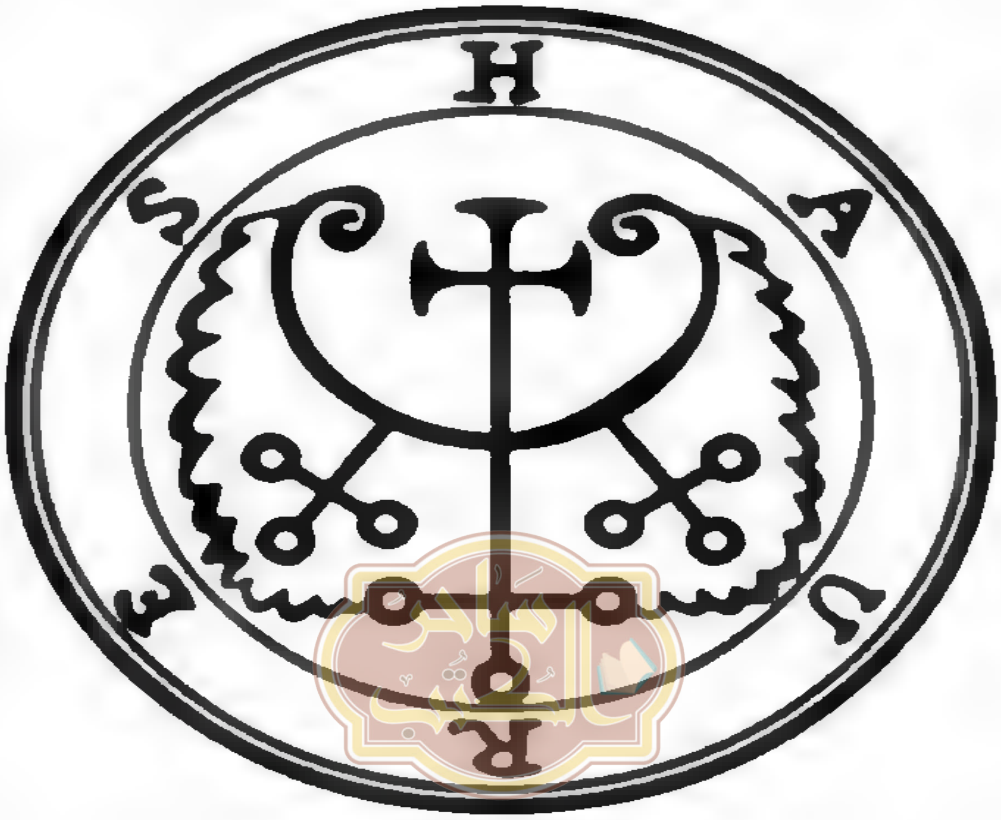

الشيطان المشتبه فيه الثاني هو سير، أمير عالم الظلمات الذي يساعد الساحر في الكشف عن الكنوز المخفية. خاتمه يحوي الأجنحة أيضًا.. لكن، لا.. ليس سير..

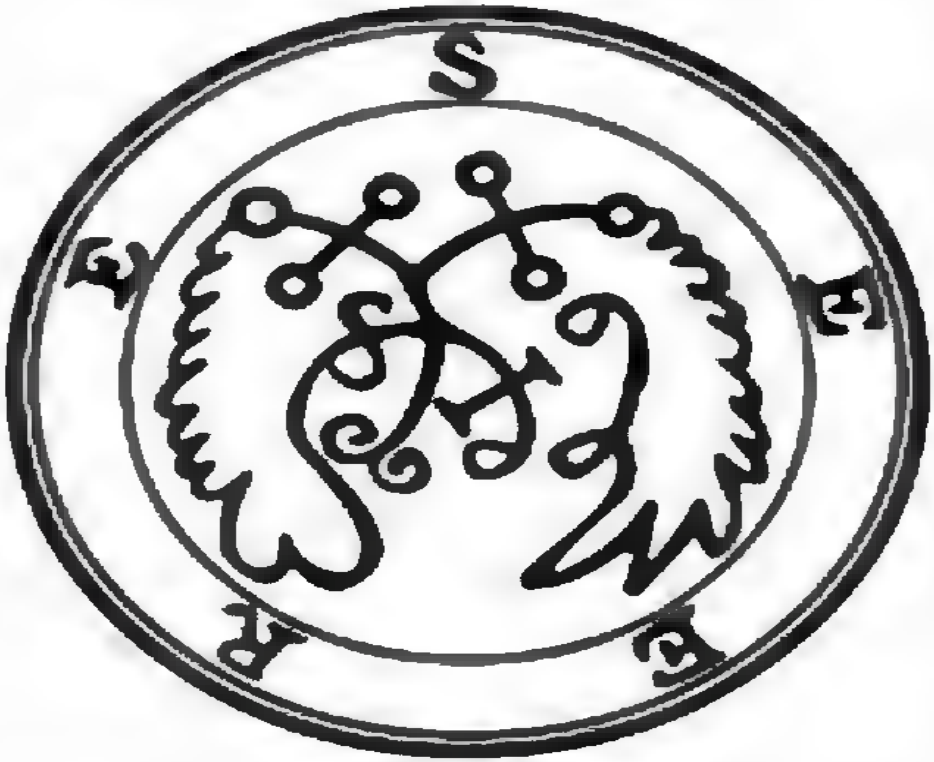

المشتبه فيه الثالث قابولا، دوق عالم الظلمات الذي يعلم الساحر الفلسفة والعلوم والميكانيكا. في منتصف ختمه قبر ذو شاهدين وجناحين.. لكن ما علاقة سكة خضرة بالعلوم والفلسفة؟

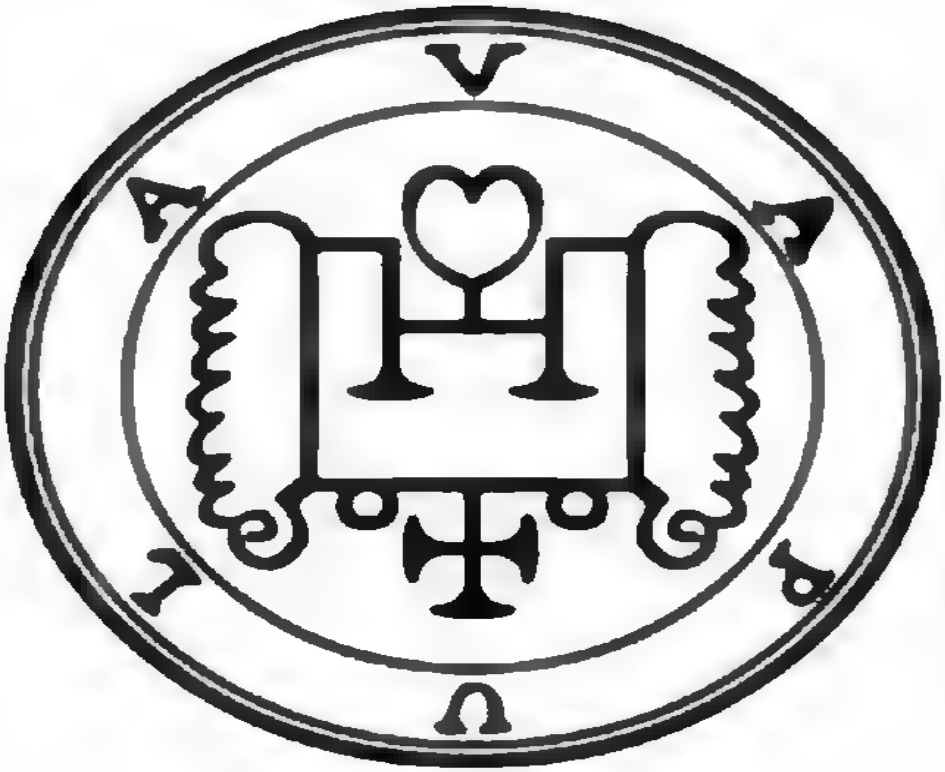

تراه فلاوروس حقًا؟ فرصة واحدة.. لا بأس.. سأجرب، وهذه هي أول مرة أجرب فيها تلك الطريقة على أي حال.

شرعت أرسم على الكرة بالقلم الفلوماستر رمز ذلك اللعين وأنا أردد.. ثم صمتُ. نظرت إلى ما تبقى من سور القلعة.. إلى الحمام حولي..

تذكرت راوية مرة أخرى، وتلك المعلّقة في صالون بيتها، والمطرز عليها نقوش الحمام تتوسطها حمامتان متقابلتان. قال لي مهاب أن حول سيقان الحمام أطواقًا..

دق قلبي وأنا أتمنى ألا يكون الموجود هنا هو الشيطان ذو الختم الذي يحوي كل شيء مميز في هذا المكان. الشيطان المذكور في العهد القديم، والذي يَعتقد البعض أنه إبليس ذاته، أو على أقل تقدير حاكم عالم الظلمات.

بلعال..

ذلك الذي يعني اسمه «بلا سيِّد»، صاحب كتاب الإنجيل الشيطاني، الشيطان الأكثر ظهورًا في الدراما والروايات.

محوت ما رسمت داخل الدائرة قبل أن يجف، وبدأت أرسم الحمامتين المتقابلتين، وسور القلعة..

قبل أن أنهي الرسم بالحروف السحرية حوله، رسمت على جبيني الرمز السحري بالقلم ويدي ترتجف توترًا..

بلعال قادر على إخافة شياطيني إلى الحد الذي يدفعهم لإخفاء شعورهم بوجوده عني. هل جسدي قادر على ابتلاعه؟

«بلعال ليس هنا يا آدم.. لا شياطين هنا..»

أكتب حروف الاستدعاء.. وأتِم رسم الختم.

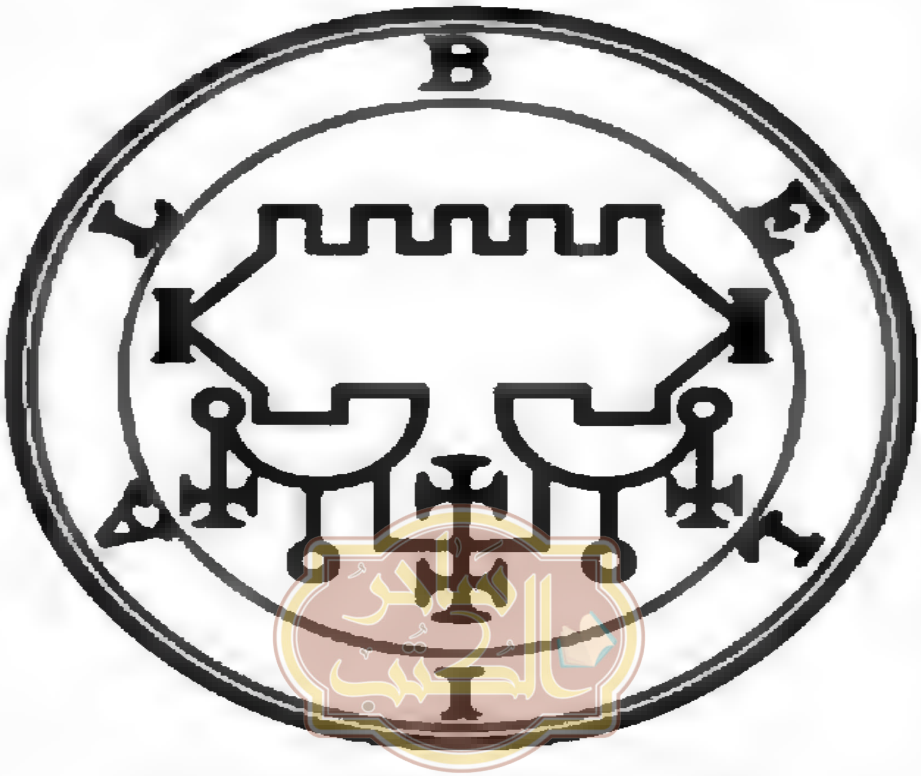

أقول بصوت قوي:

- بلعال.. أيها الشيطان بلا قيمة. احضر إلى آدم بن هاجوب لاچين ذليلًا طائعًا..

تهتز الأرض تحتي، الحرارة تتزايد، ضوء أخضر يبزغ من فوقي. أنظر إلى أعلى فأرى لأول مرة الشفق القطبي بألوانه الفاتنة، ثم أسمع الصوت القوي الآمر يهتف:

- ماذا تريد يا ابن ديهيا الفاسق؟

وأراه أمامي، بهيئته الشيطانية التي لا توصف، وبهيئته التي تراها عيناي البشريتان. شيء شديد الضخامة، في هيئة شبه بشرية،

يتوج رأسه اثنان وثلاثين قرنًا كأنها تاج عَظمي. كل هذا حبيس كرة الشاطئ، مكوم متكدس غاضب، تحيط به عصي خشبية حفرت عليها الرموز التي تُكتب حول المثلث في تصميمه الأصلي.

هذه العصي كانت عصي مكانس قديمة. ابتسمت رغمًا عني من المفارقة.

تصرخ شياطيني:

«علامَ تبتسم! لم يكن بلعال موجودًا يا آدم، وهو الآن قد جاء.. أنت غبي يا آدم.. بشري غبي مُنحَط.. لم يكن بلعال موجودًا وأنت مَن استدعيته..»

***

هرع برجاس وصالح متولي وعلي المهدي يدخلون إلى بيت الأخير لإلقاء نظرة من أعلى مبنى قريب لهم. هرع مهاب خلفهم وهو يهتف:

- أنا صحافي.. كان معي صديق من مرصد حلوان.. وقد أتى ليرى هذه الظاهرة. لقد عرفوا بها في المرصد.. دعوني أدخل وأتصل به!

حدق علي مهدي إلى وجهي وقال:

- ألم تكن صحافيًا من مجلة فنية في الصباح؟

- نعم.. و.. وكان معي صديقي الذي يشبه الفنان محمد خميس.. يعمل في مرصد حلوان.. دعني أفهم ما يحدث.

أغلق علي الباب في وجه مهاب، فوقف الأخير يهتف:

- افتحوا لي..

المقرئ في السرادق توقف عن التلاوة وراجح يُكبِّر ويحوقِل ويدعو الناس إلى الاجتماع في المسجد للصلاة والتوبة. قال حسام النادل وهو يجمع الناس:

- هيا يا رجال.. لطالما أخبرتكم أن القيامة ستقوم.. لا حول ولا قوة إلا بالله..

هرع الناس إلى المسجد في الوقت نفسه الذي صدحت بعض مكبرات صوت المآذن الأخرى تحوقل وتكبِّر. شفق قطبي في مصر؟ كيف؟!

حرارة الجو تزداد، الأرض تهتز هذه المرة بشكل ملحوظ خطِر. يسمع مهاب صوتًا ينادِه:

- بِس.. أيها الصحافي.. نسيت اسمك!

راوية تطل من باب البيت تشير إلى مهاب أن يقترب.

- تقول أنك تعرف ما يحدث؟ صديقك الممثل يعرف؟

- نعم.. دعيني أرَ ما يحدث من أعلى.

- لن أستطيع، لكن.. ادخل.. أريدك في أمر آخر.

***

دخل مهاب فسحبته راوية من يده إلى الغرفة في المدخل أسفل الدّرج. المكان مليء بـ«الكراكيب»، وفي صدر المكان منضدة ومقعد بلاستيكي وجهاز راديو سوني جديد، ودفتران وعدّة أقلام.

قالت راوية:

- بيرين أخبرتني أنك تسأل الناس عن علي، وتصر على مقابلته. لماذا؟

- أخبرتك أنني..

- لا.. أنت لا تريد علي الممثل. تصرفاتك غريبة، وصديقك هذا غريب أكثر من أي شيء قابلته في حياتي. رؤيته فقط تجعلني.. تجعلني أتذكر أمورًا لم تحدث. هل تفهمني؟ أنا.. لا يهم.. ماذا تريد من علي؟ علي غير متورط في أي شيء. لو لم تخبرني، سأصرخ وأقول أنك تسللت إلى البيت رغمًا عنا..

زفر مهاب وحكى لها الحقيقة، وما عرفه من الناس في الحارة. حدقت فيه رواية للحظات ثم ضحكت حتى هوت جالسة على المقعد.

- لا أصدق.. حقًا؟ أنا ساحرة؟! أنا تعِسة يا أستاذ مهاب، مات زوجي الذي أحببته محترقًا في سيارته إثر انقلابها على طريق الغردقة لا أكثر. من وقتها والكوابيس تحيط بي، وكلام الناس لا يرحمني. علي صار مشغولًا في أفلامه، وعندما يعود يختلي بنفسه في الغيّة. لقد رحل كل الحمام اليوم بلا رجعة. مات هو الآخر. ربما صديقك مُحق. في المكان لعنة ما..

- ما الذي جعلك تشكين في أنني أتعقب علي لأنه متورط في شيء؟ في أي شيء؟

- هذا..

أشارت إلى الراديو والدفاتر وأكملت:

- لا تسخر مني، اتفقنا؟ لا أعرف عن الجاسوسية شيئًا إلا ما رأيته في الأفلام القديمة. رأت بيرين علي وهو يستمع إلى هذا الراديو عدة مرات، ويدوّن شيئًا في هذه الدفاتر. قالت أن الراديو كان يبث كلامًا غير مفهوم. مكتوب في الدفتر كلمات بالعربية بلا معنى. لا أعرف إن كانت شيفرة أو شيئًا.. هذه الغرفة مكان يجمع فيه علي بعض المقتنيات القديمة التي يجدها في سوق المستعمل.. هواية..

نظر مهاب إلى ما في الدفاتر ولم يفهم. أخبرها أن هذا البث يظهر في أجهزة راديو عديدة، فقالت:

- لا أعرف.. لا أفهم. لكن ما شأن علي بهذا البث؟ ثم.. في الحارة حركة غريبة منذ شهر أو أكثر قليلًا. وفاة هيثم عطية له علاقة بما يحدث. كان يخرج بانتظام مع عدد من أقربه، أقاربنا.. عائلات مهدي وبرجاس ومتولي أقارب بالمناسبة. المهم أن هيثم كان يخرج بعد منتصف الليل مع أولئك الشباب، ويعودون قرب الظهيرة. أحيانًا كنت أرى غرباء بينهم. أنا الوحيدة المكتئبة التي يجافيها النوم طوال الليل، ويبدو أنني الوحيدة التي رأتهم.

- بل رآهم آخرون، وظنوا أنهم يعاقرون الخمر أو المخدرات.

- نعم.. سوء الظن آفة سكة خضرة. لقد رأتهم وهم عائدون بجثة هيثم. كان محترقًا.

- محترقًا؟ غريبة. ولماذا لم يخبروا أحدًا بالأمر؟

- لا أعرف. هذا ما أثار شكوكي. اليوم عاد رجلان آخران من عائلة

الحاج برجاس محترقين لكنهما لم يموتا.

- فيمَ تشكّين؟

- هل تصدقني لو أخبرتك أنني لا أعرف؟ لو كان علي جاسوسًا، فما علاقة هذا بهيثم والرجال؟ ما علاقة كل هذا بالهزات ورائحة الأوزون التي يكذبون بشأنها؟

- أوزون؟

- نعم.. هذه الرائحة الغريبة رائحة أوزون. وهم يكذبون يزعمون أنها رائحة غاز.

عقد مهاب حاجبيه وهو يسألها:

- كيف عرفتِ؟

- درست في كلية التربية قسم الكيمياء، وأعرف هذه الرائحة.

استأذنها مهاب لحظة ليتصل بي، فوجد هاتفي غير متاح. عاد إليها وقبل أن يقول شيئًا شعر بالحمض أخيرًا يتصاعد إلى بلعومه. كل هذا الشاي والقهوة والتوتر..

- حمّام..

- آه.. تعالَ.

هرعت راوية تصعد الدّرج إلى الطابق الثاني وهي تنظر إلى أعلى للتأكد من أن أحدًا لن ينزل من أعلى فيرى مهاب معها. منظر الريش على الدرج قلب معدته مهاب أكثر، فلم يتمالك نفسه وتقيأ. وضعت راوية كفها على فمها في ذعر وهي تنظر مرة أخرى إلى أعلى، ثم

أمسكت يد مهاب وجذبته إلى غرفة الصالون. قبل أن تفتح الباب، سمعت صوت علي يهتف:

- راوية؟ ما هذا الصوت؟ هل أنتِ بخير؟

***

يعجز بلعال عن الخروج من حدود الهرم، لكنه يقف يتكوّم- في ثقة وتعالٍ.

- ماذا تريد؟

- ماذا تفعل أنت هنا؟ مَن الساحر الذي سخّرك؟

- لا يسخّر أحدٌ بلعال. سَل وستعرف.

- لماذا عبرت إلى عالم الضياء.

- لم أعبر، ولا شأن لي به.

- لمَ عبرت؟

- لم أعبر.

- أنت أمامي الآن.

- لأنك استدعيتني. ماذا تريد؟

يمكن أن يكون صادقًا. لكن هل مصادفة أن يشبه ختمه كل هذه العناصر في المكان؟! تراني أخطأت؟

- بلعال، مَن هو الشيطان الموجود هنا؟

- لا شياطين هنا سوى مَن بداخلك.

- كاذب.

- أنت حُر. إما أن تؤمن بهذا المثلث وتصدقني أو تكفر به وتفر قبل أن أسحقك.

- يمكن أن أتركك هنا كما أنت إلى الأبد.

- لا مشكلة عندي. أنتم أبناء الطين مَن سيتأذون من وجودي. هذا ليس رصدًا. مَن يمر من هنا سيراني. وجودي سيسمم المنطقة وسيدمر كل تقنياتكم. هل تعرف لماذا لا أريد العبور إلى عالمكم؟ لأنه لن يتحملني. نصيحة من ملك الملوك، امحُ هذا الرمز من على جبينك. لمصلحتك.

- وهل تريد مصلحتي الآن؟

- كما تشاء. سَل وستعرف.

الشيطان لا يعبأ حقًا. الأرض تحته تهبط تدريجيًا ببطء شديد. الأرض تحتي تهبط ببطء، تتصدع. الضوء الأخضر فوقنا يتماوج..

- ما الذي يحدث هنا يا بلعال؟

- أمور خارج سيطرتك. ليس كل مَن في العالم إنس وشياطين يا آدم.

صحت في ضيق وشياطيني ترتعد بداخلي:

- أخبرني فقط! ما بال الشياطين تعشق الدرترة بلا هدف؟!

- سَل نفسك، وستعرف من فينا الثرثار.

- أريد إجابة واضحة وسأتركك تعود إلى عالم الظلمات.

- سأعود عندما أرغب في ذلك.

- ما الذي يحدث هنا؟

- شيء لا شأن لك ولا لي به. شيء مُحتّم. ربما تكون هذه آخر ليلة في حياتك أنت وكل مَن في هذه المنطقة يا آدم. ستزول القاهرة العتيقة الليلة على الأرجح، وبالتالي سيزول هذا الهرم وسأعود إلى عالمي. أنتَ من سيموت يا آدم.. أنت وكل مَن في القاهرة.

- ما الذي سيتسبب في زوالها؟

- شيء هنا منذ أكثر من ألف عام. لن تستطيع إنقاذ أحد..

***

جلس مهاب في الغيّة وسط عشش الحمام الفارغة، يحيطه برجاس وصالح متولي وعلي المهدي. شرب كوب اللبن الرائب الذي أحضرته له راوية، ونظر إلى علي الذي انتهى من الاستماع إلى الشهادات التي سجلها مهاب على المسجل. قال الأخير:

- مَن أنتم حقًا؟

- كما أخبرتك وأخبرت الأستاذة. أنا مهاب عمارة. استمع إلى برنامجي وستعرف أنني صادق.

- ورفيقك هذا، ساحر؟ حقًا؟

قال الحاج صالح متولي:

- إنهم نصابون جميعًا. أي تحقيقات ماورائية وأي سحر وشياطين؟

قالت راوية بصوت راجف وهي تلف ذراعها حول كتفي بيرين:

- إذًا ما الذي يحدث هنا؟ هو ليس كذابًا، أنتم جميعًا تخفون شيئًا.

قال علي وهو يعيد التسجيل إلى مهاب:

- على أنني لا أحب ما فعلته من إدخال غريب إلى بيتنا، لكني أضم صوتي إليكِ، ما الذي يحدث يا حاج برجاس؟ ما الذي حدث للحمام؟ ما هذا الضوء الأخضر في السماء؟

أجاب برجاس وقد احمر وجهه إلى حد الاحتقان:

- لقد اختار الحاج مهدي رحمه الله ألا يخبركما بشيء. لذا، سأبقِي على العهد.

هتفت راوية في غضب:

- مَن هو كي يقرر عنا؟! أعني، هو أبونا، لكن لماذا يقرر أن يخفي عنا شيئًا؟

- لقد اختار الكثيرون لأبنائهم المصير نفسه. وأنا أحترم هذا الاختيار.

- علي، ما الذي كنت تفعله بالراديو؟

توتر علي قليلًا ثم أجاب:

- سمعت هذا التشويش مرتين بالصدفة، و.. ظننت أنني أفهم ما يقال. أنا أعاني الأرق منذ فترة، فكنت أقضي الوقت في البدروم أحاول أن أعرف سبب ألفة هذه اللغة لي.

قالت راوية هامسة:

- وأنا أيضًا أعاني الأرق، وأحلم أحلامًا لا يمكن أن يكون لها صلة بالواقع. عندما قابلت هذا الرجل.. الساحر.. وضحت هذه الأحلام إلى حد مزعج. الأغرب يا علي أن بيرين أصيبت بنوبة من تلك التي تتكرر منذ شهور، ورأت خلال النوبة تفاصيل تشبه أحلامي! أنا لم أخبرها بها قَط!

سأل برجاس في اهتمام:

- أخبريني عن الأحلام يا بنتي.

- لماذا لا تخبرني أنت أولًا عما أخفاه عنا أبي؟

- لو أخبرتني ربما أخبرك بتفسيرها.

هتفت بيرين:

- رأيت أشخاص يطوفون ببناء حجري. ورأيت سماءً وردية فوقهم. رأيت كلابًا مختلفة عن كلابنا، وجملًا أبيض تمامًا. وسمعت.. سمعت الناس يتكلمون بتلك اللغة في الراديو!

اتسعت عينا علي وراح ينقل عينيه بين بيرين وأخته وبرجاس. قال الأخير وهو يقوم لينظر من بين فرجات أخشاب الغيّة:

- الموضوع لا يُصدّق، لكنه الحقيقة. الحمام لم يعد قادرًا على

العودة إلى غيّته.. وأخشى أن يموت ويموت معه كل شيء..

***

هل الأولى أن أجادل ذلك الشيء بلعال أم أنقذ ما يمكن إنقاذه من القاهرة؟

هل أعود إلى هدفي الأصلي وأحاول ابتلاعه أو تدميره أو أسره، أم أتخبط مرة أخرى في محاولات خرقاء للظهور بمظهر البطل وإسكات ضميري؟ هل للشياطين ضمير؟

يمكن أن أختفي وأترك كل شيء وأعود إلى سيوة. ستزول القاهرة وسيعود الشيطان إلى عالمه. هذا أسهل وأسلم حل..

مهاب.. مهاب في سكة خضرة. لو لم آتِ أنا به لكان الآن في بيته في أمان.

أنهب الطريق بالسيارة عائدًا على مسجد الرفاعي ومنه إلى الحارة.

الكرة التي حبست فيها بلعال هي طريقتي لتجسيم مصايد الشياطين. هكذا سأنقل السحر إلى عالم ثلاثي الأبعاد، أقوى بكثير من عالمه المسطح العتيق الذي لم يجرؤ ساحر على تطويره. لأشهر جربت هذا التجسم في أسر شياطين صغرى ممن تهيم في الصحراء بعد تدمير قصر ديهيا، ونجحت. يمكنني الآن أن أأسر شيطان وأنقله معي إلى حيث أشاء. تطوير هندسي للمصابيح السحرية التي تحوي مردة بداخلها. هذه القصص لم تكن بلا أساس، وها هو تطبيقها العملي وعلى شيطان هائل..

كل هذه المشاريع الطموح قتلها غبائي..

«بل غرورك يا آدم.. مبروك، لقد صرت شيطانًا بالكامل!»

لقد بددت فرصة، لكن لا بأس، لولا هذه المحاولة الخائبة لما عرفت الكارثة التي ستحدث. إلا أنني لا أعرف بعد مُسببها ولا كيفية إيقافها.

يجب أن أفر، ويجب أن أعيد مهاب إلى بيته على الأقل.

«مرة أخرى تحنُّ إلى أبناء الطين..»

على الأقل سأنبههم. إن لم أكن بطلًا فلا يمكن أن أكون مؤذيًا.

أحاول أن أتصل بمهاب من هاتفي الذي تركته في السيارة. خطأ في الشبكة. المجال الكهرومغناطيسي هنا قوي للغاية. أعتقد أن بلعال عاجز عن فعل شيء لأنه تأثّر بالمجال القوي لا أكثر. إن صحّ ما قال، فلا خطر عليه على أي حال.

الساعة الثامنة إلا ربع. الشارع متوقف وقد ترك الجميع سياراتهم ليشاهدوا الألوان الخلابة في السماء. تكبيرات المساجد لا تتوقف. لن أصل إلى مهاب في الوقت المناسب. يجب أن أحاول.

أختفي من سيارتي ومعي حقيبتي، وأتجسّد في مكان لا أعرفه، مكان مظلم ضيق زلق الحوائط. سأجرب مجددًا. حمام صغير حوائطه مغطاة بالقيشاني الأخضر. أحاول مرة أخرى. حارة مزدحمة مليئة بالناظرين إلى السماء. أنظر حولي فأرى الغيّة من بعيد. عظيم.

أشق الصفوف وأعدو سريعًا. الحواري متشابكة بعضها مغلق. أرى الغيّة وأعجز عن الوصول إليها بأقصر الطرق. أتخبط في المارة

والزحام. لا أعرف كيف وجدت نفسي ألهث وأنا أغمغم باسم مهاب، ولا كيف ناديت بصوت علا فوق الهمهمات وصرخات الذعر:

- مهاب!

لكني لا أريد أن أنقذ مهاب وحده. كل هذه الأوجه المذعورة لا تستحق الإبادة الجماعية. صعدت فوق سيارة واقفة على جانب الطرق وصحت:

- اهربوا من هنا! ابتعدوا عن منطقة القلعة بالكامل. الآن!

الناس تتدافع، البعض يظنني مخبولًا، البعض استسلم للنهاية.

أقفز من فوق السيارة وأعدو مجددًا..

***

اتسعت عينا برجاس وهو ينظر إلى منطقة المقابر البادية من أعلى. أمسك هاتفه المحمول وحاول إجراء اتصال ما دون جدوى. التفت إلى صالح متولي وهتف:

- يبدو أن الشباب فشلوا. هيا بنا.. علي، خذ أختك وبيرين ومهاب واخرج من القاهرة بسرعة. ابتعد إلى أي مسافة تستطيع الوصول إليها.

هتف علي:

- ماذا يحدث؟! أخبرني!

- لاحقًا. هل ترى مساحة المقابر هذه؟ ستنفجر بقوى تدميرية قد تصل إلى مائة كيلو متر مربع. هيا..

جذب علي أخته وبيرين من كفيهما ونزل الدّرج سريعًا، تبعهم مهاب وهو يحاول الاتصال بي دون جدوى. سقطت بيرين فجأة، وراحت ترتجف وتنتفض. سأل مهاب:

- هل هي مصابة بالصرع؟

أجابت راوية:

- نعم. مع الضغط والخوف تتكرر النوبات. عندما اهتاج الحمام بلا سبب اليوم أصيبت بنوبة وراحت تخرف بتلك اللغة الغريبة.

أشار علي لمهاب ليحمل الفتاة معه ويكملا النزول إلى السيارة. توقف صوت التكبير من مسجد قريب، وسمع مهاب صوتي –أنا لاشين- يهتف:

- أخلوا المكان سريعًا. ابتعدوا في أي اتجاه بعيدًا عن المقابر. مهاب عمارة، انتظرني أنا قادم.

***

وقف بلعال ينظر إلى التشققات حوله وهو ينتظر في ملل أن ينتهي كل هذا. رأى مجموعة رجال على مسافة مائة متر يخرجون من فجوة ما تحت الأرض، وينظرون حولهم في ذعر حتى يروه. ينظر لهم في تعال، فيفرون.

المشكلة أن بلعال قلِق بشأن مشكلة أخرى. ما تحت الأرض يطلق طاقة كهرومغناطيسية مفزعة، قد تمنعه عن العودة إلى عالمه بسلام، بل قد تشتت طاقته وتفنيه.. هذا حدث غير مسبوق لم

يشهده من قبل. أين ذلك اللعين لاشين؟

***

يرفض مهاب أن يركب السيارة مع علي كي ينتظرني. يتردد علي قليلًا وهو ينظر إلى الأهالي يتخبطون ويفرون. يتصارعون على ركوب السيارات والتكاتِك والدراجات البخارية الرخيصة. يهرع مهاب إلى داخل السرادق، ويشغل مكبر صوت المقرئ الذي فر من المكان. يهتف فيه:

- لاشين! أنا في سرادق العزاء. ماذا يحدث؟!

لا يتلقى مهاب ردًا مني، بل سمع صوتًا ينادي من مكبر صوت المسجد:

- أخلوا المنازل بسرعة. على كل أبناء عائلات برجاس ومتولي ومهدي والقوصي الاجتماع في سرادق عزاء سكة خضرة حالًا. الهواتف لا تعمل..

كرر الصوت النداء. بعد لحظات رأى مهاب الناس تتوافد في مجموعات إلى السرادق. الوجوه يعلوها الذعر. الحاج برجاس يصعد بصعوبة إلى ما فوق مقعد المقرئ ويهتف:

- مَن يتذكر يظل هنا، ومَن لا يتذكر يفر مع الأطفال إلى أبعد مكان.. هيا!

رأى مهاب سالم وحسام بين الواقفين، يسألان في ذعر:

- ما الذي يحدث؟ لماذا يستدعون أبناء هذه العائلات فقط؟

أجاب واحد من الواقفين:

- لا عليك.. مشكلة عائلية.

ثم نظر إلى سالم دامع العينين وعانقه في حرارة وربّت على ظهره.

- ما الذي يحدث يا حسين؟! خير كفانا الله الشر؟

- لا شيء.. هيا..

ثم رآني أدخل السرادق عدوًا. اندفع نحوي، فنحيته جانبًا وأمسكت بياقة برجاس وهززته وأنا أقول:

- ماذا يحدث؟ ما الذي سيدمر القاهرة؟

امتقع وجه الرجل وامتدت الأيدي تفصل الرجلين. قال متولي وهو يكاد يغشى عليه:

- صمتًا! لنحاول مرة أخرى جميعًا منع هذه المصيبة. وأنت أيها الساحر. قال هذا الشاب أنك تأكل الشياطين ولا تموت. أليس كذلك؟

قال برجاس في استسلام:

- سيأتي معنا. كل من يستطيع أن يفعل شيئًا يأتي معنا.. حتى لو لم يكن مثلنا.. هذه أرضنا جميعًا شئنا أم أبينا، ولا مكان لنا سواه.

***

جيء بسيارة نقل ركب فيها أبناء العائلات الأربع، ومعهم أكثر من عشرين شخصًا من أهل الحارة من بينهم رفعت وهمّام وسالم والفتى صاحب محل الهواتف المحمولة. تسلّح بعضهم بنبابيت

وسكاكين، ولا أعرف –أنا لاشين- في أي شيء قد تفيدهم هذه الأسلحة.

عند طرف المقابر الجنوبي حفرة كبيرة أخرى خلف حاجز معدني من حواجز أعمال الطرق، إلا أن المكان لم يكن فيه أي إصلاحات. أزال الرجال ذلك الحاجز ونظرنا جميعًا إلى الوهج الأبيض الصادر من عمق الحفرة.

قال الحاج برجاس بصوت مهيب:

- اسمعوا.. كلنا الآن في مركب واحدة.

تهدج صوته قليلًا وهو يكمل:

- هذه بالأسفل مركبة سفر بين نجمي. المركبة الأم. ونحن، أبناء العائلات الأربع، لسنا بشريين.

تعالت شهقات من خلفي، وتبادلت أنا ومهاب النظرات.

- المركبة الأم على وشك التدمير الذاتي، وكان ليحدث هذا منذ شهرين تقريبًا لولا تعطّلت بعض الأمور الميكانيكية في المركبة، وعجز نظام التدمير الذاتي عن تفجيرها. لكنه لم يتوقّف، ولا ينفك يعيد المحاولة بلا توقف.

سألت:

- ما هي آلية التفجير؟

- فرط تشغيل المحركات حتى الانفجار. المحركات لا تعمل بسبب تراكم الغبار عليها من أكثر من ألف سنة. منذ عام 901 ميلاديًا.

عندما أتينا كان المكان خاليًا. دفنّا المركبة الأم هنا. متصل بها الآن ست مركبات فرعية أخرى في الولايات المتحدة والأرجنتين وأستراليا وروسيا والهند والقارة القطبية. ستنفجر كلها بانفجار سفينتنا. انطلقت المركبات في الولايات المتحدة وروسيا والقارة القطبية إلى الفضاء لتنفجر بعيدًا، وعجزت المركبات الأخرى عن الحركة. الكارثة الكبرى هنا في مصر.

أمسك مهاب رأسه غير مصدق، ونظر إلى الوهج بالأسفل. سألت ثانيَ سؤالٍ عمليًا:

- بأي وقود تعمل هذه المركبة؟

- مفاعل نووي..

رباه.. ألهذا احترق مَن رأيتهم عند حافة الحفرة؟ ألهذا احترق هيثم كما حكى لي مهاب؟ حروق إشعاعية.. تشوه أجِنة.. هذا الشيء تحت الأرض كارثة حتى لو لم ينفجر. يجب أن نوقف الحواسيب تمامًا.

أكمل الحاج:

- سأحكي كل شيء لو نجونا، لكن ما أطلبه منكم الآن هو محاولة تعطيل آلية التفجير.

سأل سالم:

- تقول أن المشكلة في الميكانيكا؟

- نعم. بسبب الغبار.

- لا يستعصي عليّ شيء في شغل الميكانيكا. لنزل الغبار عن

الماكينات. سهلة!

مسح الحاج برجاس وجهه بكفه في يأس، وهتف مهاب:

- يا ابن آدم، الرجل يقول أن عطل الميكانيكا هذا هو ما يجعل المحركات لا تدور، وعدم دوران المحركات هو ما يؤخر التفجير حتى الآن!

- آه.. فهمت..

تراجع سالم إلى الخلف وبرجاس يكمل:

- كل ما أريد أن تعرفوه أننا الآن بشريون. بعد أكثر من ألف سنة من التناسل ومئات الأجيال تفصلنا عن أصلنا البعيد، أؤكد لكم أننا منكم حقًا. لقد وجدنا حقيقتنا فيكم.. في تاريخكم وترابكم ومزاحكم و.. وغبائكم أحيانًا.

دمعت عينا برجاس، فقلت في نفاد صبر:

- ما المطلوب الآن؟ هذا المفاعل النووي كارثة في حد ذاته. أعرف أنه معزول عنا، لكنه كارثة مستقلة.

- المطلوب إيقاف برنامج التدمير الذاتي وتعطيل الحواسيب فيُغلق كل شيء. لقد حاولنا كثيرًا وفشلنا. المفاعل شديد الحرارة ودفقات الإشعاع والطاقة التي تخرج من المركبة هائلة. هل ترون هذا الشفق فوقنا؟ هو ناتج عن الحقل المغناطيسي الفائق الذي نقف فوقه، وهو سبب اهتياج الحمام وتخبطته وسقوطه ميتًا، وهو سبب مشاكل الكهرباء و..

قال مهاب:

- ومصدر رائحة الأوزون.

هز برجاس رأسه مؤكدًا. إذًا لا شياطين في الأمر حقًا. إن الشياطين في النهاية ظواهر طبيعية تخضع لفيزياء هذا العالم، وقد تتشابه الظواهر التي يتسببون فيها مع الظواهر الناتجة عن أي نشاط طاقيّ آخر. لا بد أن أسجل هذه الملاحظة. الشياطين طاقة ذكية، لا أكثر ولا أقل.

أحمد الله على أن أسامة لن يعرف بفشلي العظيم في التعرف على النشاط الشيطاني. سألت برجاس ونحن ننزل إلى الحفرة:

- هل سفنكم سبب اختلال المجال المغناطيسي للأرض؟ أعاني مشاكل في.. في الملاحة..

- لا.. تصادف هذا مع نشاط شمسي غير معتاد هذه الفترة.

لم أرَ مركباتٍ فضائيّة من قبل، ولم أكن أحلم بأن أرى واحدة. هذا الاتساع.. هذه الإضاءة.. تلك الأجهزة وحروف لغتهم. يبدو أن أبناء العائلات الأربع قد فوجئوا مثلنا رغم أنهم يعرفون أصولهم الفضائية. هذا شيء لا يمكن تخيله مهما سمعت عنه.

هذا الذهول في الأعين أقلقني. لا وقت لتحسس الحوائط ولا لمحاولة قراءة الكتيبات. سأل مهاب متولي:

- هذه لغتكم التي كان يسمعها علي في الراديو؟

- نعم. كنا نحاول التواصل مع المركبات الأخرى. نحن نتواصل

طوال الوقت بالمناسبة، منذ اخترع البشر الراديو ومن قبله بالطبع. لكن الناس يسمعون أصواتنا منذ أول بث إذاعي. أنت بالتأكيد سمعت هذه اللغة مرارًا وأنت تبحث عبر الموجات عن شيء تسمعه. ثمة قناة أمريكية خاصة صنعها هواة، مهمتها رصد هذه الأصوات ومحاولة فهمها. يدعون أنها أصوات كائنات فضائية.

غمز متولي لمهاب وهو يبتسم، فلم يبتسم مهاب.

الوقت يجري.. يجب أن تتعطل هذه المركبة على الفور.

جلس الشاب صاحب محل الموبايلات على أحد المقاعد أمام شاشة حاسوب وهتف:

- أعرف فيروسات كومبيوتر يمكن أن تدمر أي نظام مهما كان. بأي نظام تعمل هذه الحواسيب؟

نظر له شذرًا شابٌ من شباب العائلات الأربع –وكلهم شُقر بدرجات متفاوتة- وقال ساخرًا:

- قُم يا أحمد.. هذا ليس «سايبَر».

نظر برجاس إلى الحيرة على الوجوه، ثم قال غاضبًا:

- ارحلوا جميعًا.. هيا..

- وسنترك الـ..

- سنترك كل شيء. لا مفر.. لا حل.. لعل الحواسيب تتعطل من تلقاء نفسها..

قاطعته:

- ولعل المركبة تنفجر من شدة الحرارة.

أضاف سالم:

- وربما يعمل المحرك فجأة. أشياء كهذه تحدث.

فكّر يا آدم.. إما أن نعطل الحواسيب، وإما أن نحتوي الانفجار أو كمية الإشعاع الكفيلة بقتل الناس مع الوقت حتى لو لم تنفجر المركبة.. فكّر.. همس لي مهاب:

- لا أريد أن أبدو غبيًا، لكن.. ألا يمكن أن.. أن تبتلع المركبة كلها أو تبتلع طاقتها أو.. أي شيء من هذا القبيل؟

ابتلع الطاقة؟ لا يمكن، فهذه ليست طاقة ذكية أستدرجها إلى جسدي. سمعت شياطيني تهمس لي في إلحاح:

«آدم.. ملك الملوك بلعال لديه فكرة.. اسمع..»

وسمعت.. ثم قلت لبرجاس:

- لدي حل.. سحري.. غادروا المكان على أي حال..

ثم قلت لمهاب:

- مهاب.. تعالَ معي، وجمّد قلبك..

***

لقد حبس المثلث بلعال حتى الآن، لكن عيبه أنه لا يخفيه، ولن نترك شيطانًا هكذا ونرحل. المخاطر لا نهائية. لكن ماذا عن استغلاله؟ لقد عرض عليّ الشيطان عرضًا يبدو أنه لا مفر من قبوله

للأسف.

وقفت أمام بلعال وأوقفت مهاب داخل دائرة الحماية. قال الشيطان :

- الاتفاق كالتالي. ستحررني من هذا القيد السخيف، وسأنتقل إلى داخل المركبة، وسأتجسد بداخلها فأمتص كل الطاقة الحرارية في أثناء تجسدي..

أكمل بلعال وهو يقرّب رأسه تجاهي داخل الكرة:

- سأحوّل المركبة إلى برّاد.. مُجمّد..

- نعم. وستتعطل الحواسيب. سنحتاج إلى درجة حرارة أقل من ثلاثين تحت الصفر. أنت ملك عالم الظلمات..

- ملك الملوك.

- وستحتاج إلى طاقة هائلة لتتجسد في عالمنا.

تذكرت يوم تجسد جبر في اليابان(4) وكاد مهاب –وسهير- يتجمدان بردًا. ماذا عن تجسد ملك شيطاني؟

- ما الخدعة وراء هذا العرض يا بلعال؟

- أنا في هذا الهرم الحقير لا أقول سوى الحقيقة. أنا في خطر. لا أعرف إن كنت سأعود إلى عالم الظلمات لو انفجرت المركبة أم سأتبدّد. هذا هو الحل الذي يسعد كافة الأطراف.

نظرت إلى مهاب، فقال الأخير بصوت راجف:

- حسنًا، أعتقد أن هذا هو الحل، لكن لا تُخرجه من هذا الهرم قبل أن يُتمّ اتفاقه.

ابتسمت ونظرت إلى بلعال، فابتسم. لست مطمئنًا.. لكن ما الخيار الآخر؟ لا وقت.. لا وقت..

ربطت الهرم بالحبال، وناولت مهاب طرفًا وأمسكت الآخر، وشرعنا نجر الشيطان الأسير إلى مدخل المركبة وأنا أفكر في مدى تخبط هؤلاء الفضائيين. مفاعل المركبة لا يتوقف لأن الحواسيب تحاول تشغيل المحركات لتدميرها. كارثة لا أفهم فيها شيئًا، وحلها الجذري في ذلك الهرم الخشبي المُطلسَم، وهو حل غير مأمون، لكني أمام خيارين كلاهما مُر..

***

وقفت أنا ومهاب خارج المركبة بعدما أغلقنا مدخلها بعناية كما علّمني برجاس. بدأ بلعال عمله، والمفترض ألا نشعر بالبرودة ونحن بالخارج؛ بدن المركبة عازل للحرارة، لكن..

الشيء بالداخل هائل القوة..

طفقنا ننتظر. الحاج برجاس والحاج متولي في سيارتي ينتظران، رفعت وهمام وحسام وسالم يجلسون على الرصيف، من خلفهم تحتشد السيارات وتتكدس سواء فرارًا أو فضولًا. باقي الرجال عادوا للتأكد من إخلاء المنطقة وهو عمل بلا جدوى تقريبًا. لو انفجر هذا الشيء سيمحو القاهرة كلها..

تمر الدقائق ثقيلة. أفكر في بلعال، وفي كل الاحتمالات.. لو تجسّد

بلعال بشكله الشيطاني الكامل –كما تجسد شيطان الرعب من قبل- فهل سيحتويه الهرم؟ أعرف أنه أقوى ثلاث مرات على الأقل من مثلث تتراجراماتون، لكنه بلعال..

لو لم يتحمل الهرم، ماذا سأفعل؟ سألتهمه.. سيتمزق جسدي وأفنى.. وسيظل بلعال بخير. لكن طالما كان الشيطان داخل الهرم، فأنا قادر على.. تقاطعني شياطيني:

«آدم.. ماذا يفعل ملك الملوك؟ ما يجري غريب..»

- ماذا؟ ما الذي تشعرون به؟!

«ملك الملوك لا يسحب الطاقة الحرارية فقط.. ملك الملوك يسحب طاقة المفاعل يا آدم.. السيد بلعال الأعظم يبتلع طاقة نووية!»

اتسعت عيناي ذعرًا، نظر لي مهاب متسائلًا، فهتفت رغمًا عني:

- مصيبة! بلعال يبتلع طاقة المفاعل..

خرج برجاس من السيارة وأمسك كتفيّ يرجوني أن أشرح له ما يجري، فشرحت. امتقع وجهه وقال وهو يمشي سريعًا إلى المركبة:

- تعالَ معي.. أبقِ نظرك على الشيطان وسأدخل أنا لغلق المفاعل يدويًا.

- ألم تحاولوا غلقه من قبل؟

- حاولنا! مات منا سبعة شباب! لكن ما الحل؟!

الكارثة أن الحل كان أمامنا من البداية.. أنا أكثر تشتتًا وتخبطًا من الفضائيين! الحل كان أمامنا من البداية! دفعت الحاج برجاس غضبًا

من نفسي ومنه. هتفت وأنا أعدو نحو المركبة:

- سأغلق أنا المفاعل! نحن مجموعة حمقى متذاكين! أخبرني بسرعة بالطريقة.. لن أموت.. سأحترق وأتشوه لكني سأشفى!

هتف مهاب:

- وبلعال!

توقفت في منتصف الطريق وسط القبور أحك رأسي لحظات، ثم قلت له:

- تدثّر بكل الثياب الموجودة يا مهاب وسأخبرك..

دون نقاش خلع كل الموجودين أغلب ملابسهم ولفوا مهاب بها وأنا أشرح له ما سيفعله ببلعال، وأختم إرشاداتي بقولي:

- لا تنصت إليه.. أبدًا..

***

خاتمة

في الثانية عشرة إلا ثلث قبل منتصف الليل، جلس برجاس وسط السرادق، وجلست أنا في ركن بعيد مغطى بكريم الحروق ميبو ذي رائحة السمسم الثقيلة، وقد أصر سالم على أن يغرق جسدي به. أمرتهم مرارًا بالابتعاد عني، لكن الشهامة أخذتهم كالعادة، وتدفقت المحبة منهم رغم أنهم قد عرفوا أنني ساحر، نصف شيطان.

لست مشعًا لحسن حظهم، فقد التهمت شياطيني بقايا الإشعاع وبدأت تُشفي جسدي تدريجيًا. أعتقد أنني صرت أقوى بشكل ما، لكنها تجربة لن أكررها ما حييت.

على الجهة الأخرى من السرادق، مهاب ملفوف ببطاطين خشنة بنقشة النمر، يغطي كفيه ويديه بقرب الماء الساخن. طرف أنفه أحمر بشكل مُقلِق، لكنه بخير إلا من صدمة جراء مواجهة بلعال.

كان مهاب قد تدثر بالملابس فصار كالكُرة، ودخل إلى حيث بلعال داخل الهرم المتوهج بالأحمر الداكن. تصور أن الشيطان سيتلاعب به، سيكلمه، لكنه لم يفعل. تلا مهاب بحروف متقطعة طلسم الصّرف من خلف دِثار وجهه وكرره لزيادة التأكيد، ثم نظر من الفتحة الصغيرة التي تركها لعينيه ومشى مذعورًا نحو المثلث ليقص أي حبل من الحبال التي تربط العصي. تلاقيت عيناه وعينا بلعال العميقتين كالهاويتين، المحدقتين من بين العُصي المتشققة، فقال الأخير بهدوء وتعال:

- خائف مني؟ لماذا أتلاعب بك؟ لماذا أفاوضك؟ اصرفني، وسأعود

إلى عالم الظلمات أقوى بما لا يصدق. لقد قلت لصديقك أنه لا حاجة لي بعالم الضياء، وقد كنت صادقًا. هذا العالم لن يتحملني.

سأله مهاب رغمًا عنه:

- لماذا ساعدتنا إذًا؟

- لأصير أقوى في عالم الظلمات. أنا ملك الملوك، والملك لا ينزل عن عرشه ليغزو عالم الضياء بنفسه. سَل، وستعرف..

ارتجفت كف مهاب الملفوفة في قميص وهو يقطع الحبل بمطواتي، ثم يتراجع إلى الخلف فيسقط على الأرض. تدفقت رائحة الكبريت خانقة، واختفى بلعال من الكُرة التي انكمشت على نفسها بقوة ثم تفتتت.

رغم أن المقابلة كانت قصيرة، بسيطة، لكن لقاء بلعال رهيب، لا يوصف. ما قاله قبل انصرافه مثير للتفكير. بلعال ملك ملوك عالم الظلمات، فلو صار أقوى، فماذا سيكون؟

تلك اللقاءات السريعة دون تلاعب أو تهديدات تقلقني. لا بد أنه يدخر قواه لمصيبة أكبر.

ضحكت وأنا أتخيل شيطانًا برأس نووي.

بدأ برجاس يحكي لي ولمن تبقى من أهل الحارة والفضائيين الذي أبوا أن يغادروا المكان حكاية عمرها أكثر من ألف سنة.

- «ولد أسلافي في كوكب رؤتِه، وعاشوا عليه ملايين السنين، حتى عرفوا بقرب كارثة ستدمر الكوكب تمامًا؛ وابل من نيازك

ضخمة لا يمكن تفاديها.

هكذا، لم يكن من بُد سوى الفرار السريع إلى أقرب كوكب في مجموعتنا الشمسية قد يصلح للحياة المؤقتة. مات اثنان مليار وربع نسمة من سكان رؤيتِه، ونجا اثنان وتسعين شخصًا فقط، منهم أسلافي. لأكون أمينًا، مَن فر من الكوكب هم أهل السلطة في كبرى البلدان، وثلة من العلماء والقادة العسكريين. فقط. نعم.. تركوا كل شيء لم يروا فيه نفعًا. وُلِد جدي الأكبر ولم يعرف لنفسه وطنًا سوى قاعدة رؤيتِه على كوكب نيشبيه. لا يعرف أي شيء عن رؤيتِه سوى أنه دُمّر. ماذا كان قبل ذلك؟ لا يهم.. كانوا يقولون لأسلافنا أنهم الآن يعيشون في مستعمرة على كوكب موحش، وعليهم أن ينشغلوا بالبقاء والتطور حتى يجدوا لأنفسهم كوكبًا بديلًا في أقرب وقت».

قاطعه رفعت:

- إذًا أسلافك من كوكب روته هذا، وجدك الكبير ولدت في كوكب شِيبة؟

- نيشبيه، نعم. أشبه بالمريخ بالنسبة للأرض. أتصور أن جدي الكبير سأل أمه في يوم عن سبب الدندنة التي يطلقها وهو يستحِم، فقالت أنه رد فعل لا أكثر. رد فعل لأي شيء؟ لا يعرف. ماذا عن تاريخ كوكبنا؟ كيف كنا وكيف وصلنا إلى ما نحن فيه؟ لا شيء.. التاريخ لا يهم. نحن في وضع البقاء على قيد الحياة، ويجب أن نصب تركيزنا على النجاة.. النجاة فقط.

تلك هي الحكاية المتوارثة في عائلتنا على أي حال. حكاها لي جدي وقد عرفها عن جده ومن قبله جده وهكذا. هذا هو تاريخ

عائلتنا فقط. لا يوجد ماضٍ أبعد من المستعمرة والبقاء أحياء.

سأل همام:

- وأنت يا حاج؟ وُلدت على الأرض؟

- نعم. منذ ثمانية وستين عامًا. أنا أرضيٌ أبًا عن جد إن كان للأرض جنسية. سألت جدي يومًا عن معنى أن يعيش المرء بلا أي شيء سوء الصراع للعيش، فقال لي أنه أيضًا لا يفهم، فعلى الكوكب الأرض نصارع كي نعيش، لكننا أيضًا نحيا. نضحك، نحب، نستمع إلى عزف الطبيعة على أغصان الأشجار، ننظر إلى ما ترك أجداد البشر حولهم من أثار تخبرهم بأن لهم جذورًا، ونتخيل جذورنا الخاصة.. لا يعيش نبات بلا جذور..

قلث متململًا:

- المهم يا حاج.. الكوكب.. أسلافك وكيف ولماذا جاءوا إلى الأرض.

- يبدو أنني -كسائر أهلي- انجرفت في الحديث عن الأرض. سأعود إلى أسلافي، وإلى يوم قررت حكومة الكوكب -بعد مائة وخمسة وأربعين عامًا من العيش بصعوبة على كوكب شيبيه- إرسال أربع بعثات إلى أربعة كواكب قد تصلح للحياة. لقد احتاج علماء كوكبنا إلى وقت طويل حتى يتمكنوا من بناء سفن سفر بين الأنظمة النجمية. معلوماتنا عن تلك الكواكب قليلة، أغلبها استنتاجات رياضية، لكن يجب أن يذهب أحد ويلقي نظرة ثم يرسل تقاريرَ تساعد أولي الأمر في الانتقاء.

كان نصيب أجدادي كوكب الأرض. بعدما ركبوا المركبة الأم،

وكانوا ثلاثين شخصًا فقط، وجدوا بروتوكولات التصرف في جميع الاحتمالات. ماذا سيفعلون لو كان الكوكب غير قابل للهبوط عليه، أو كان مسكونًا بكائنات غير ذكية، أو كان مسكونًا بأخرى ذكية. كل التفاصيل والاحتمالات موجودة، إلا احتمال واحد لم يخطر لهم ببال.

حطّت المركبة الأم في الصحراء التي بُنيت فوقها –لحسن حظنا أو سوئه- القاهرة، وقد اختيرت هذه المنطقة آليًا لأنها تتوسط قارات هذا العالم. انقسمنا إلى مجموعات صغيرة كما حكيت لكم. ظل أجدادي هنا، واندمجوا بأهل الأرض نظرًا للتطابق شبه التام بين جنسينا، إلا أنهم لم يتزاوجوا معهم خشية الطفرات الچينية. عُرِف جنسنا في الأساطير باسم «الصم البُكم»، لأننا تعلمنا لغة البشر بادعاء أول جيل منا أنهم صُم بُكم، فلم يسألهم أحد عن أصلهم ولا ما يفعلون. بدأ هذا الرعيل الأول وما تلاه من أجيال في جمع المعلومات لسنوات طويلة، ثم بعثها في رحلة طويلة إلى المستعمرة لتحليلها. ظل سيل المعلومات والتعليمات من الأرض وإليها مستمرًا ألف عام. كل جيل ينقل المهمة لأبنائه، ويعلمهم اللغة القديمة وسبب وجودهم على الأرض. لكم أن تتخيلوا أن أجيالًا تحملت عبء هذا البحث وهم لم يروا كوكبهم الأصلي ولا يعرفون عن تاريخه شيئًا، ولا حتى صورًا قديمة! كيف يشعرون بالانتماء إلى جنسنا وهم هنا بين جنس شبيه وتاريخ يعبث أبناءه إلى أرضهم؟

سألت وأنا أتذكر الحمام والغيّة التي ضلّلتني:

- والحمام؟ هل هو فضائي مثلكم؟

- لا. يوم حطّت مركبة أجدادي على الأرض أحاط بها الحمام، كأنه عرف أننا جئنا في سلام، ويبشرنا بالنجاة. الحمام في كوب رؤته يستشعر الخير ويحيط به، وهو منقوش على بدن السفينة الأم. لطالما أحب جنسنا الحمام الزاجل، منذ كان طريقة تواصل بينكم في ماضي الأرض. إنه يذكرنا بأنفسنا.. طرنا من الغيّة، وإليها سنعود في يوم ما.. متى؟ لا يهم..

مع مرور مئات السنوات، صارت الغيّة وهمًا. هل يمكن أن تتخيل شيئًا بلا صفات؟ هل يمكن أن تتعلق به؟ تخيلوا أن الأرض صارت بلا تاريخ، بلا سجل لتطور البشر. هل ستشعرون بالانتماء إليها؟ أم ستنشغلون فقط بالبقاء؟

همهم رفعت:

- سننشغل بلقمة العيش طبعًا. مهند ابني لا يعرف توت عنخ آمون نفسه، ولا يهتم لمعرفته.

- لكننا بقينا على العهد قدر استطاعتنا، وجاءت أجيال قررت أن هذا يكفي، وأنها لن تنقل تلك المهمة المريضة لأبنائها. عاصرت أنا قرار الحاج مهدي بتحوله الكامل هو نسله إلى الجنس البشري بل والتزاوج معهم أيًا كانت النتيجة، ولم يكن أول من فعل هذا بالمناسبة. حولنا آلاف من بني جنسنا لا يعرفون أصلهم ولن يعرفوه. المهم أن علي وراوية وبيرين وإخوتها لا يعرفون أصلهم، لكننا أبقينا أعيننا عليهم.. تحسبًا. تحسبًا لأي شيء؟ للعودة طبعًا.

كانت مهمة مبعوثي بني جنسنا أن نجمع معلومات عن تاريخ البشر وحاضرهم كي يتنبأ علماؤنا في المستعمرة بمستقبل البشر

وما سيكونون عليه وقت وصول سكان كوكبنا في حال قرر الكبار الانتقال إلى الأرض. وبينما نحن نبحث في تاريخ الأرض، فُتِنّا.. هذا هو ما ينقص تكويننا.. التاريخ.. أصل الغية ومكانها. تعلقنا بالأرض، وصارت أغلب معلوماتنا عن تاريخها لا تسليحها. عن فنونها لا عن عقيدتها القتالية. عن أديانها لا حروبها. كان بنو جنسي يعتقدون أن هذه هي المعلومات الأهم.. هذا ما نفتقده وما نحتاجه.

ظلت المستعمرة تستقبل رسائلنا وترسل إلينا إشعاراتها، حتى توقف كل شيء. لم ينقطع الاتصال، لكنهم صمتوا. سنوات طويلة لم نتلق منهم أي شيء. أين ذهب الجميع؟

اتسعت عينا حسام وهتف:

- ماتوا؟!

- لا.. منذ عام تقريبًا، تلقينا رسالة من شخص لا نعرفه، يقول أنه.. متمرد على القيادة، وأن القيادة تخلّت عن بعثة الأرض كلية، واعتبروا أن الأرض أفسدت عقولنا وأن طريقة تفكيرنا الحالية لا تتناسب مع سياسة المستعمرة. نعم.. هم لا يريدون من يبحث عن التاريخ، يريدون فقط من ينشغل بالبقاء حيًا.

ضرب الحاضرون كفًا بكف، وسبّ سالم الفضائيين قليلي الأصل الذين تخلوا عن رجالهم. أكمل برجاس:

- حسنًا.. لم نحزن. أتعرفون السبب؟ لأننا لم نكن نريد العودة. كنا فقط نأمل أن يناسب هذا الكوكب معايير القيادة، فينقلوا جنسنا كله إلى هنا في سلام. أعرف أن ما أرسلناه يخبرهم بأن الاستيلاء على

الأرض مجهود لا يستحق، وهدر للسلاح والموارد. كنت أخشى أن يستدعونا للعودة، لكن لا مشكلة.. هذا أفضل.

إلا أنهم لم يتخلوا عنا فقط.. بل قرروا تدمير التكنولوجيا التي أتينا بها خشية أن تقع في أيدي البشريين. هكذا أطلقوا بروتوكول التدمير الذاتي، ولولا تراب الأرض الذي أفسد المحركات لكنا في خبر كان منذ أكثر من شهرين.

هذه هي حكايتنا، تاريخنا الصغير البائس الذي لم يجد ما يروي جذوره الجافة سوى تاريخ كوكبكم الذي جعل منكم هذه الكائنات البديعة. هذا الكوكب هو غيّتنا ومستقرنا، وسنفعل كل شيء لإنقاذ كل متر فيه. كان في وسعنا الهرب إلى خارج القاهرة مثلًا، لكن هنا أهلنا وتاريخنا، ولن نتخلى عن وطننا مرة أخرى حتى لو مُتنا تحت أنقاضه».

***

دار حسام نادل المقهى بأكواب الشاي وشطائر الجبن والبيض. نظر مهاب إلى كوب الشاي في ذعر يفوق ذعره من بلعال وهز رأسه رافضًا.

سأل رفعت:

- لا أصدق يا حاج.. فضائيون؟ كنا نظن أن الفضائيين خُضر يسيل المخاط من أفواههم ويلتهمون البشر أو يفجرونهم بأشعة قاتلة.

ضحك متولي وقال:

- كل الأجناس الذكية شبيهة بالبشر. هذا ما تشير إليه الإحصاءات

الرياضية التي توصل إليها علماء كوكب رؤته. لا منطق في أن يكون جنسًا ذكيًا ذا أنياب أو أشبه بالديدان العملاقة. الهيئة البشرية هي التكوين الأمثل للكائنات الذكية.

وقف سالم فجأة وسط السرادق وصاح:

- وهل كنتم سترحلون لو استدعوكم؟! ستهون عليهم العِشرة؟!

غمغم همام ورفعت وحسام موافقة، وقام همام يعانق الحاج برجاس ويقبل رأسه وهو يقول:

- لا يا حاج.. لا ترحلوا.. أقسم بالله لو حصل هذا لنفكك هذه السفينة الفضائية. نحن أهل!

ضحك رفعت وقال:

- لو رحلتم خذونا معكم. سنفتتح أفخم محل فول وطعمية في الفضاء كله.

أضاف حسام مازحًا:

- وأفتتح أنا مقهى أستخدم فيه شاي (نِبتون)!

ضحك الجميع على (القافية) المصرية الصِرفة، وابتسمت رغمًا عني. نعم، المصريون سادة التأقلم، وها هم أبناء الحارة ينسون الإشعاع والفضائيين والأوزون والشياطين ويمزحون كأن شيئًا لم يحدث. نظر لي سالم وقال:

- وأنت أيضًا يا باشمهندس. ربما تكون ساحرًا والعياذ بالله لكنك ابن بلد حقيقي. أقترح أن تذهب إلى عُمرة أو حجٍّ وتتوب إلى الله.

هو المُطّلع على النفوس، وأنت نفسك خيّرة. يبدو أن أبناء الحرام هم مَن دفعوك لهذا الطريق.

قبل أن نودع أهل الحارة، اصطحبني برجاس إلى الغيّة أنا ومهاب، وصعد إلى سطحها وراح يحرك العلم ويطلق صافرة استدعاء الحمام. قال وهو ينظر إلينا من أعلى:

- لعل أحدها يعود.. ربنا كريم..

سألته:

- هل الفضائيون هم أبناء هذه العائلات في المنطقة فقط؟

ابتسم لي الحاج وأجاب:

- مَن يعرف؟ ألا يمكن أن نكون جميعًا فضائيين؟ حتى أنت ومهاب؟ لا فارق يا بني. هذه الأرض هي وطننا، ولا يهم أي شيء آخر.

نظرت من بين فتحات حوائط الغية إلى المقابر بالأسفل، إلى الآثار المُهملة المتآكلة. إلى توسعات الطريق التي أزالت المقابر القديمة ومَن يسكنها. نعم، هذا الكوكب يحفظ تاريخه في باطنه مهما مُحي ما على سطحه. مَن يبحث سيجد. نحن مشغولون الآن بلقمة العيش ولا نرى أجدادنا يتآكلون من حولنا. نحن نعيش في حالة البقاء على قيد الحياة. هل نفقد جذورنا؟ هل يأتي يوم نضل فيه في ظلام سماء الليل ولا نجد غيّة نعود إليها؟ سمعت مهاب هتف بي:

- لاشين.. انظرا

نظرت إلى أعلى، إلى فَرد حمام الشقلباظ الأبيض يدور في الهواء فوق برجاس، ثم ينطلق إلى داخل الغيّة ويقف ليشرب من المسقاة. بعد لحظات رأينا أربع حمامات أخرى تعود. نعم.. رغم ما هلك من الحمام، نجا البعض، وسيعيد النسل من جديد.

العودة دائمًا أولًا، ثم محاولة البقاء على قيد الحياة..

***

في اليوم التالي قرأت الأخبار عن معيري شغب تسببوا في إخلاء منطقة سكة خضرة من سكانها، وقد عاد الجميع بعدما تأكدت السلطات أن ما أشيع من وجود متفجرات في المنطقة محض شائعات.

أما عن الأضواء الغامضة التي غضت السماء فوق المقابر، فلم تكن سوى أضواء من ليزر حفل زفاف في المنطقة انعكس على طبقة السحب الخفيفة.

كل شيء على ما يرام. لا أعرف مصير باقي المركبات في البلدان المختلفة، لكنها لم تنفجر بالطبع. قد تكون قادرة بعد على الإقلاع منفردة، لكنها غير مُعدّة للسفر بين النجوم، لذا أتوقع أن تظل في مخابئها حتى إشعار آخر.

لا زال رصد بيتي في غير موضعه، ولا زلت أعاني مشاكل التجسد والبحث الدقيق في ماضي الأماكن، لكن لكل شيء حل. البشر سادة التأقلم، ويبدو أن الجميع مصرون على أنني بشري بشكل ما.

عشت يومًا من أغرب أيام حياتي، يستحق بلا منافس أن يحتل

أعلى قائمة أيام «الشقلباظ» التي أحياها بلا توقف.

يجب الآن أن أعود إلى غيّتي، إلى غايتي، إلى الأبواب الموارية التي تركتها طوال السنوات الماضية. العودة أولًا، ثم البحث عن سبل النجاة.

أشغل أغنية التصقت بعقلي منذ الأمس، وأجلس لأضع مخططات تطوير مثلث تتراجراماتون، أو فخ هرم لاچين كما أسميته، بينما تشدو نجاة:

«وبعتنا مع الطير المسافر جواب.. وعتاب

وتراب من أرض أجدادي..

وزهرة من الوادي،

يمكن يفتكر اللي هاجر إنه له في بلاده أحباب..»

---

(1) أبناء ديهيا- الكتاب الثاني.

(2) الكتاب السادس- جزيرة الضحاك

(3) الكتاب الثالث- ساحرة الأوراس

(4) لعبة ناجورو- الكتاب الثامن